ملحق مشروع

بناء السّلام في لبنان

العدد رقم 10، كانون الأول 2015
Issue nº 10, December 2015

شعوب متمكنة.
أمم صامدة.

ملحق خاص

يصدر عن «مشروع بناء السلام في لبنان» التابع لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي بتمويل من الوزارة الاتحادية الألمانية للتعاون الإقتصادي والتنمية من خلال بنك التنمية الألماني (KfW)، ويوزّع مع جريدتي «النهار» و«السفير» بنسخته الأصلية، ومع جريدة The Daily Star بنسخته المترجمة إلى الإنكليزية، ومع جريدة L'Orient Le Jour بنسخته المترجمة إلى الفرنسية.

يجمع الملحق عدداً من الكتّاب والصحافيين والإعلاميين والباحثين والفنانين اللبنانيين والسوريين، ويعالج انعكاسات الأزمة السورية على لبنان والعلاقات بين اللبنانيين والسوريين، في مقاربات موضوعية بعيداً عن خطاب الكراهية.

© داليه خميسي

03 هكذا عشتُ منذ 30 عاماً طفلاً نازحاً مررتُ بلبنان
04 الخروج من السياسة
05 منظّمات المجتمع المدني ومدّ الجسور
06 مشروع «سوريا ببالي» رحلة في التراث
07 مثل الدفء الذي يبثّه الحساء في الجسد
09 نساء لبنانيّات: هذا البحر ليس لنا...
10 أثرياء سوريا يعانون أيضاً جرّاء الحرب
11 «نفايات قوم عند قوم موارد»
12 رحلة انتظار في المحطة
13 ذاكرتان في مدينة واحدة
14 المسرح السوري في لبنان
15 «ألف تايتانيك وتايتانيك» عرض صامت عن أهوال الهجرة
16 أنا السوري – اللبناني المتهم

08 موسم الهجرة... إلى الموت

ألمانيا مستعدة لمواجهة تحدّي الأجيال

من موقعي كسفير لألمانيا في لبنان، أودّ أن أشارككم بعض الرؤى والانطباعات عن سبل تفاعل الشعب الألماني مع أزمة اللاجئين الوافدين من سوريا والعراق ودول أخرى.

لقد استقبلت ألمانيا منذ العام 2012 نحو 150,000 لاجئ من سوريا، ونتوقع أن يصل عدد الزوجات والأطفال الذين سيتبعونهم إلى الرقم نفسه تقريباً. وقد تقبّلت الغالبية العظمى من الألمان هؤلاء الهاربين من الحرب، أو من الحرب الأهلية، أو القمع السياسي، حتى أن البعض منهم قدّموا لهم مساعدات هي عبارة عن عيّنات من المواد الغذائية والملابس. كما عرض بعضهم إيواء لاجئين في منازلهم بشكل مؤقت ريثما يتم النظر في أوضاعهم.

في الواقع، إن ألمانيا ترحب باللاجئين عموماً. ولكن، كي لا نكون سُذّجاً، نقول إننا ما زلنا في المرحلة الأولى من مهمة أكبر بكثير بغية دمج مئات الآلاف من الأشخاص من خلفيات ثقافية ودينية مختلفة، وذلك طيلة فترة إقامتهم في بلادنا. وسيحتاج هذا الأمر أكثر من مجرد تبرعات وتعاطف أوّلي... سيحتاج فعلياً سنوات وسنوات من الجهد والموارد، لكن الأهم هو مقاربة هذه المهمة بثقة وحسن نيّة. وقد كانت ألمانيا منذ البدء واضحة بشأن ضرورة مشاركة الجميع، أقلّه دول الإتحاد الأوروبي، في تحمّل هذا العبء.

ممّا لا شك فيه أن الإعلام يلعب دوراً مهماً للغاية في دعم هذه المهمة، فهو يؤثّر على المواقف من خلال تعزيز فهم هذه القضية، وشرح الأسباب الكامنة وراءها والتصورات المختلفة حولها، وبالتالي يمكن لوسائل الإعلام أن تسهم إسهاماً كبيراً في تفادي نشوب المشاكل والنزاعات وتخفيفها.

في هذا الإطار، أتقدّم من برنامج الأمم المتحدة الإنمائي بالتهنئة على الجهد الكبير الذي بذله لتوفير تغطية شاملة ومتوازنة للتحديات الهائلة التي تواجه لبنان. كما أشكر الحكومة اللبنانية والشعب اللبناني على كرم الضيافة والتعامل الإنساني اللذين أغدقوهما على نحو 1.5 مليون لاجئ تستضيفهم البلاد حالياً.

السفير مارتن هوث

القائم بأعمال السفارة الألمانية في بيروت

تسليط الضوء على القصص الإيجابية

ماذا لو تم تناقل قصص إيجابية حول النازحين السوريين في لبنان بشكل مستمر؟ ماذا لو سلّطنا الضوء على الأثر الإيجابي وليس السلبي وحسب للأزمة على الدول المضيفة؟ ماذا لو كان بإمكاننا تصحيح التوازن وإلقاء القليل من الضوء على قصص التعاون وصداقات الكرم والحوارات المستمرة مع النازحين في لبنان؟ ماذا لو كان بإمكاننا الكتابة عن المبادرات الصغيرة كما التدخلات والأنشطة المشتركة بين اللبنانيين والسوريين والتي عادة ما لا تلاحظها أو لا تغطيها وسائل الإعلام؟ أعتقد أن هذه الأسئلة، إذا ما تمت الإجابة عليها، تستطيع أن تقدم منظورًا جديدًا حول وجود النازحين السوريين في لبنان.

في هذا العدد من الملحق، وكما في الأعداد السابقة، يقوم كتاب وناشطون في مجال حقوق الإنسان وفنانون وصحافيون لبنانيون وسوريون بمناقشة مواضيع متعلقة بالنازحين السوريين والمجتمعات المحلية التي تستضيفهم، كما يولون اهتماماً خاصاً بالأبعاد العاطفية والإنسانية والثقافية والفنية التي تحدّد شكل ما نسمع وما نرى في لبنان، فيما يناقشون حالات التنميط والتمييز والتعاون المتبادلة.

إن الملحق الذي تقرؤونه اليوم هو أداة للتغيير. هو «الأغورا» أو مكان التجمّع لعرض النهج السلمية وغير العنيفة والمناهضة للتمييز لبناء المجتمعات المحلية مع النازحين. فإذا ما بذلنا قصارى جهدنا لعرض البعض من القصص والمبادرات الإيجابية الكثيرة، سندرك مدى حاجتنا، أكثر من أي وقت مضى، لطريقة ننظر فيها إلى العالم تُطلِق شرارات إمكانيات كلّ منّا.

يحمل لبنان، منذ سنوات عدة، عبء الأزمة السورية، وهو يظهر للعالم كيف يمكن الحفاظ على مرونته واستقراره، نسبيًا. وهو قد تعثّر أيضاً، إنّما يمكننا جميعاً التعلّم من تلك الهفوات. أنا أدعوكم، في موسم الأعياد هذا، لكي تبحثوا عن القصص الإيجابية للمرونة والمشاركة والتعاطف في مجتمعاتكم المحلية. كما أدعوكم لكي تكونوا جزءًا من هذا الجهد المبذول لتنمية مجتمع سلميّ احتوائيّ، خالٍ من الخوف والعنف.

لوكا ريندا

مدير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في لبنان

فقراء في مواجهة فقراء

لا حاجة الى القول إننا غير مسرورين بوجود هذا العدد الهائل من اللاجئين السوريين في لبنان، لان لنا تجربة سيئة مع اللجوء الفلسطيني الذي بدأ موقتاً فصار دائماً، وهو ينعكس سلباً على الشعبين وعلى العلاقة بينهما، وعلى مجمل أوضاع لبنان.

وبعيداً من العلاقة أو الرأي في النظام السوري، فاننا ندرك جيداً ان اللاجئين هم أناس مظلومون هربوا من جحيم بلدهم الى أي منطقة أمكنهم بلوغها من تركيا والأردن ولبنان، وصولاً الى أوروبا، وغالباً عبر قوارب الموت.

ليست مشكلة لبنان مع السوريين أفراداً، خصوصاً أن ثمة علاقات قربى ومصاهرة بين كثير من العائلات في البلدين، وثمة تفاعلاً تاريخياً في ما بينهم، لكن المشكلة تكمن في تخلي المجتمع الدولي عن الجميع، لبنانيين وسوريين، اذ ان المساعدات المقدمة للاجئين لا تكفي، وهي شحيحة للمجتمعات المضيفة، بما يجعل تأمين الضروري للوافدين امراً متعذراً الا من خلال المضاربة في المصالح والأعمال، وبالتالي «سرقة» خبز اللبناني من فمه ومن أفواه أبنائه، فيصير الفقراء في مواجهة الفقراء، وتزداد النقمة، وتتعمّق الأزمة.

بهذه القراءة يمكن أن يتفهم بعض السوريين عدم قبول اللبنانيين بهذا الواقع، خصوصاً في المناطق والقرى التي أصيبت بتخمة اللاجئين، وصارت بناها التحتية عاجزة عن توفير الخدمات التي أنشئت من أجلها. أضف ان الخدمات الضرورية غير متوافرة للبنانيين وخصوصاً الماء والكهرباء، فكيف يمكن أن يفرحوا بتقاسم تلك الكميات القليلة مع غيرهم؟!

على المجتمع الدولي أن يتحرك بوتيرة أسرع وأفعل لتجنيب الشعبين مرارة الحرب ولحماية أوروبا والعالم من اجتياح جحافل اللاجئين من كل حدب وصوب.

غسان حجار

مدير تحرير صحيفة «النهار»

«#أنا_سوريّا!»

أنا سوريّا! أنا العربيُ المشرّدُ في تيهِ الكلامِ المعلوك، والأفكار الجاهزة، والحقد، ولوم «الآخر» دوماً على ما يقع على هذه الأرض.

أنا سوريّا! أبدأُ مع مياه المحيط الأطلسي وأتغلغلُ تيهاً، وتشرّداً، بؤساً وعجزاً، كسلاً ورضا «بالمكتوب» مهما عَظُمَ، بلا حراك، بلا فعلٍ، وصولاً حتى حدود المحيط الهنديّ.

أنا سوريّا! من عربٌ سواي؟ أنا سوريّا، من العراق أتيت، من فلسطين، من جيبوتي، من مخيّمات البؤس في لبنان، من الأزقّةِ الفقيرةِ في كلِّ أرضٍ عربية.

أنا سوريّا! أنا أبناءُ مخيمات الأرضِ الجديدة وإرهابيوها.

أنا مجرّدُ كتلٍ من النِساءِ والأطفالِ، يجوبون شوارعَ بيروت بأسى، وشبّان في مقتبل العمر يكدِّسونَ أولادَهم ومالَهم وزادَهم وما تبقّى من لحمٍّ حيٍّ في مراكبَ بخسة، تُبحِرُ نحو مجهولِ الغرقِ في مياهِ المتوسّط أو الذّلِ عند حدودِ الدولِ الغربيّة. أنا كُتَلٌ من البشر، بلا لون، بلا ماضٍ، بلا غدٍ، أضحوا إرهابيين ممنوعون من معظم الأرض.

أنّا الإرهابُ وأنا ضحاياه.

أنا الموالي وأنا المعارض. أنا المنهمكُ في جدلٍ بيزنطيٍ حولَ السبّبِ والمسبّبِ فيما أولادي يتلاشون في يمٍّ من الدماء. أنا البريءُ، ضحيّةُ «لعبةُ الأمم»، وصُباعي يُحكِمُ على الزنادِ مطلقاً الرصاص على وجوهٍ مَحَوْتُ أسماءَها وصلاتِ الرحم.

أنا حفاةُ المدنِ، يجوبون الشوارعَ بذهولٍ ويُتم. أعزّاءُ قومٍ ذُلّوا. لا تَغفِر لِمن شرّدوهُم ... فهم يعرفون ماذا يفعلون. لا تغفر لي يا أبتاه، فأنا لم أقفْ في وجه من عرّاني.

أنا سوريّا! أنا شوارعُ الياسمين الهانئة التّي ابتلى من رشقها بالنارِ والخرابِ بإطلاق مارد الخراب في صِقاع الأرض الأربع.

هنادي سلمان

مديرة تحرير صحيفة «السفير»

إدارة متوازنة

من اللافت استنتاج أن بلدان الاتحاد الأوروبي، بعد مضيّ رد فعل التضامن الإنساني، قد خلصت إلى اعتماد المقاربة الأمنية ذاتها في مواجهة تدفق اللاجئين لناحية إعادة اعتماد المراقبات الحدودية التي لطالما عاتبت لبنان عليها.

نذكر جيداً كيف أن بعض هذه البلدان وعدداً من المنظمات غير الحكومية، كانت قد استقبلت، بقليل من الحفاوة، قرار الحكومة اللبنانية تنظيم موجة الهجرة على الحدود بمزيد من الصرامة، في حين كان عدد المهاجرين قد تخطى المليون وعدد السكان اللبنانيين يقارب الأربعة ملايين.

ليست «الشنغن» اليوم سوى ذكرى، وتنوي بلدان هذه المساحة من التجول الحر للأشخاص والممتلكات، إجراء التعديلات الجدية على هذه المعاهدة، بسبب الثغرات التي سُجِّلَت على الحدود الخارجية لأوروبا في وجه التدفق غير المتوقع للاجئين.

وكما في كل المجتمعات الملغّمة بانعدام الأمن والاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة، يُرجّح إلى حد كبير بروز تطرّفَين متناقضين: الأول، هو اعتبار أن الإرهابيين قد تسربوا لا محالة بين المهاجرين، وبالتالي زيادة الإجراءات القسرية التي تناهز رهاب الأجانب ضد هذه الشعوب؛ والثاني على العكس من ذلك، هو الإفراط في الملائكية والتفكير بأن أوروبا تلقت دعوة إلهية لدمج كامل أفريقيا والشرق الأوسط وآسيا. وهما موقفان يتساويان في الخطورة لكنهما غاية في البساطة.

بادئ ذي بدء، وإن كان من المحتمل أن تكون موجة الهجرة قد سهّلت تنقل بعض المتطرفين، إلا أن تحقيقات الشرطة أظهرت أن معظم مرتكبي الأعمال الإرهابية وُلدوا في البلدان الأوروبية التي استقبلتهم، ويقطنون ويعملون فيها، لا سيما في فرنسا وبلجيكا.

لذلك، فمن الموهم الظن أن أوروبا قادرة على استضافة الشعوب من قارات ثلاث باسم التضامن والمشاركة وحسب. فلا يمكن للفرنسيين والألمان والبلجيكيين واليونانيين أن يقوموا في الوقت ذاته بدفع حكوماتهم إلى بذل المزيد من الجهود من أجل اللاجئين، وأن يتذمروا بعدها بسبب إجبارهم على المشاركة في التكاليف.

قلب كبير وإنسانية، إنما مع جرعة من الأمن: هذه هي شروط الإدارة المتوازنة لملف اللاجئين.

غابي نصر

مدير تحرير الملاحق الخاصة

صحيفة لوريان لوجور (L'Orient-Le Jour)

لموسم مختلف من الأعياد

«وأنتَ تعودُ إلى البيت، بيتكَ، فكِّر بغيركَ، لا تنس شعب الخيامْ
وأنت تنام وتُحصي الكواكبَ، فكِّر بغيركَ، ثمّةَ مَنْ لم يجد حيّزاً للمنام»

محمود درويش

ها هو موسم الأعياد يحلّ مجدداً، وهو بالنسبة إلى الكثير من اللبنانيين مناسبة للإسراف في الطعام والشراب والاحتفال، سواء كان ذلك في المنزل أم في الخارج. وفي هذه الأيام القليلة تنفد الهدايا عن الرفوف ويسود جو من الفرح. في الواقع، إن موسم الأعياد يمنح الكثير من الأشخاص فسحةً للاستراحة من الأسى المحيط بهم في بلد ليس فيه ما يبعث كثيراً على السعادة، ولكنه قد يبعد كثيرين عن فعل الخير.

لقد أثّرت أزمة اللاجئين السوريين علينا جميعاً في لبنان، وأدت إلى مشاكل اقتصادية واجتماعية كبيرة، في حين أن المساعدات المالية المخصصة لهذا البلد كي يتحمّل عبء استضافة نحو 1.5 مليون لاجئ سوري، مع أنهم مرحب بهم، تعاني من نقص حاد.

غنيٌّ عن القول أن على المجتمع الدولي القيام بالمزيد من الجهود في هذا المجال، وينطبق هذا الأمر على المنظمات غير الحكومية المحلية. وأيضاً على كل مواطن لبناني تقديم المزيد من العطاءات لهؤلاء اللاجئين الذين لم يأتوا إلى لبنان بمحض إرادتهم، لأنهم يستحقون العيش بكرامة إلى حين تسنح لهم الفرصة للعودة إلى بلادهم.

مع اقتراب فصل الشتاء وما يحمل معه من برد وأمطار، لندع موسم العطاء هذا يبرز الجانب الأفضل فينا جميعاً. ولنتخلّ عن الإسراف، ونبدأ، عوضاً عن ذلك، بالتبرع للّاجئين. بالطبع، المساعدات المالية هي الأساس ولكن المساعدات العينية مهمّة أيضاً وقد تشمل الملابس الدافئة والبطانيات والألعاب. أما إن كنتم غير قادرين على التبرع، فإن كلمة لطيفة، أو صلاة صادقة، أو تفكير محب نحو اللاجئين من شأنه أن يحدث فرقاً في واقع حياتهم اليومية.

لننشر البهجة والفرح في هذا الميلاد.

نديم اللادقي

رئيس تحرير صحيفة «الدايلي ستار» (The Daily Star)

حقوق الطبع © 2015 . جميع الحقوق محفوظة لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) - مشروع بناء السلام في لبنان.
إن المقالات والتحقيقات والمقابلات وغيرها مما ورد في هذا الملحق لا تعبّر بالضرورة عن آراء برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ولا تعكس وجهة نظر البرنامج. ويتحمّل كتّاب المقالات وحدهم المسؤولية عما ورد فيها.

نزوح

هكذا عشتُ منذ 30 عاماً طفلاً نازحاً مررتُ بلبنان

نصري الصايغ*

ولدتُ كما لم يولدْ أحد. اعتدى «أبي» على أمي. اغتصبها ثم طردها. و«أبي» زعيم عشيرة في الشمال السوري. نساء العشيرة وفتياتها حلال له. تقليد سافل يخضع له أفراد العشيرة. ولدتُ كما لم يولد أحد. أمي المطرودة والطافرة مداواة للعار، أحسَّت بالطلق، فانتحت مكاناً منبسطاً في بقعة غير مأهولة من البادية، وقامت بترتيب الولادة القريبة. حجر مسنون، به، قطعت حبل السُرة. هكذا روى لي خالي حكاية قدومي إلى هذا العالم. قال لي: «ضمّتك إلى صدرها وأرضعتك من حليب ثديها ودمع عينيها. كانت تبكي وتبتسم». لغة أتقنتها أمي في حياتها.

من العار ولدتُ ومن الاغتصاب خلقت. ولعل اسمي، نادر، يتناسب مع طريقة وفادتي إلى العالم.

عندما عادت أمي إلى مضارب أهلها، أخفتني عند خالي، رفيق رحلتها السرية مع العار. اخترع خالي قصة لحمايتي من أذى الصبية وألسنة الرجال ونميمة النساء. قال: «يتيم نربّيه». وقام بتربيتي وتنشئتي كيتيم. باكراً، أرسلني إلى ما يشبه المدرسة. تعلّمت بشغف. تعلّقت بالحروف وبالأرقام. جنة هي الحروف وعالم من الألغاز هي الأرقام. بينهما عشت ولعبت وكبرت. اكتشف خالي سر محبتي للكتاب. كان يراني أتدرّب على الإملاء ثم على الإنشاء ثم على تقليد نصوص الكتاب.

كبرتُ. أمي تعاملني أمام الناس كيتيم، وعندما تختلي بي، كانت تبكي وتضحك. تضمّني إليها وتجعلني لعبة بين يديها.

كبرتُ أكثر. صرت فتى يافعاً. أذكر أني كنت أسترق السمع إلى الإذاعات مما تيسّر من مذياع وأقرأ المناشير. أحسست أن وطني هو البديل عن أبي. نشيد «سوريا يا حبيبتي» كنت أنشده كأنه من تأليفي.

وفجأة، ولد ربيع عربي، كانت ولادته طبيعية. ولد، كما يولد الأطفال، من رحم بعد مخاض. ولد أولاً في تونس. فرحتُ. انتقلت العدوى إلى القاهرة، فرحتُ وانتميتُ وتمنيتُ لو يصل دمشق. وصل الربيع إلينا، وكانت الكارثة، كان ربيعاً قانياً، موحشاً وحشياً. وصل إلى مناطقنا في الشمال السوري أسود قاتماً. يشبه الرماد بعد الحرائق. لم تعد الحياة ممكنة، الموت سيد الساحات. ضيفٌ يوميٌ لقرى وبلدات وشوارع وأزقة. القتل، من هوايات حَمَلة البنادق. البنادق المتبادلة والمضادة قتلت «الربيع». مات. لم يعد لشيء معنى، سوى معنى النجاة، من أجل حفنة من الأيام الكالحة. حَمَلة البنادق بلا رحمة، تتشابه في القتل.

وكالبدو خفّت أقدامنا وكالنور صرنا ننزح من مضارب الإقامة. نجونا مراراً، ومرة، كان حظ أمي، شظية من قذيفة. وكان من حظي أن أدفنها بيدي. امتنعت عن وضع إشارة أو شاهد على مرقدها، فلتبق الضحية مجهولة إلى الأبد. من حقي وحدي أن أحتفظ بها في قلبي وهكذا كان.

فأنّى كنت وأنّى حللت، ظلت أمي «آمنة» ذخيرتي المعلقة في قلبي.

عرّفني خالي على شخص ذي نفوذ. «هذا قادر على تأمين انتقالك إلى لبنان. أنا لا أستطيع. سأبقى هنا». كان «الشخص» رجلاً مسلحاً يقود مجموعة من الشبان والفتيان. لم أهتمّ كثيراً لصفاته. لم تثرني طريقته في قذف الشتائم وادعاء الشجاعة. «هذا أمهر المهرّبين... اطمئن». قال خالي، ثم دسّ في جيبي نقوداً ورسالة في مظروف وطلب إليَّ أن أقرأها بعد بلوغ الحدود اللبنانية.

دخلتُ لبنان خلسة. وعند مفترق الطريق الترابي الذي يودي إلى المصنع، فتحت المظروف وقرأت ما يلي: «الرجل الذي أمّن تهريبك إلى لبنان، هو أبوك».

غامت الدنيا. شعرتُ بغثيان. وددتُ لو أعود. لم أعرف ماذا أقول... وكنتُ كلما ابتعدتُ عن الحدود، أنسى أني موجود. رجال القافلة ونساؤها يسيرون على إيقاع حذر، خوفاً من الوقوع بين أيد أمنية، تعيدنا من حيث أتينا... فجراً، وصلنا إلى طريق ترابي تنتهي إلى مخيم.

هذا هو البديل عن وطني. صرتُ مواطناً في وطن من خيام، بلا أرض ولا علم ولا أحد يعرفك...

ماذا أقول عن إقامتي في لبنان؟ أتذكّر مرارة النزوح وثقل الحضور. صرنا أرقاماً. نصحو على تعداد وننام على تهمة. كنت قد عرفت الوحول في طفولتي. كنت عرفت النوم في العراء، بسبب الفقر والطفر. كنت أعرف العذابات الصغيرة التي تنتهي بعناق أمٍّ ونوم في حضن. وكنت أحتمل كل ذلك. الفقر في الوطن ليس لعنة. اللعنة أن تكون فقيراً في الغربة. لبنان، الذي استقبلنا أعداداً، تعامل بعضه معنا، ركاماً.

بعد صدمة الأيام الأولى، عرفت أن اللجوء صعب جداً. الحصول على صفة لاجئ، يلزمها أن أنخرط في السباق: أتسجّل في «أمم»، أنتظر ثم أنتظر، وبعدها تحضر بطاقة اللجوء، مع ما فيها من مذلة. هي البديل عن بطاقة هويتك ووطنك وأرضك. تصير مجهولاً تاماً، اسمك هو رقمك وهو ذو صلة بما قبله وبمن بعده. لكن عزائي كان في أن أصبحت عالة على «الأمم المتحدة». ظننت أن العذاب اليومي والتهديدات المستمرة، بالجوع والإقامة والمنامة، ستتوقف. فأنا مواطن دولي... لم أشعر بطمأنينة. آكل بالصدفة، أنام من دون مواعيد، أينما كان وكيفما كان. أسير وخطواتي تدلّني على الطرقات، إلى لا مكان وضعت نصب عينيَّ أن أجد عملاً ما. أي عمل. لن أتسوّل أبداً. جُعت مراراً، أصبتُ بزكام حاد. ليالي البرد كانت طويلة، نهارات القيظ كانت حارقة... كنت كغيري، ولداً راشداً، ألعوبة الفصول، نعاني الوحل والغبار، ونتطلّع إلى «خبزنا كفاف يومنا»، وقلّما كنا نحصل عليه.

مراراً، كنت أفكر بالعودة. جبنت. العيش بلا أب ليس كارثة. ثم، انتظمت المساعدات «الإنسانية». أكره الشفقة. لقد ارتكبوا فعل الشفقة. ذل يتجدّد، أن تقف في صف طويل، لتنال حصتك أو ليعاينك طبيب على عجل. لا زلت أحفظ في ذاكرتي ما أقدم عليه رجال ومخاتير وبلديات. قدموا لنا الكثير. ولكن كثيرهم قليل علينا. نزوحنا لم يتوقف. كنا مئات، ثم مئات المئات، ثم لم يعد للأرقام محطة ترسو عليها. صرنا فوق طاقة الجمعيات الخيرية وتقدمات القرى والبلديات.

قلت، أبحث عن عمل، وجدت أعمالاً كثيرة. كنت أخجل من وجبة مجانية، وأملك جرأة وشجاعة أن أعمل، أي عمل. لا أحبّ أن أسرد الأعمال التي قمت بها، لقاء ليرات زهيدات. عملت في محطة وقود. أغسل وأنظف. عملت في تصليح الإطارات. نجحت. عملت في نقل الأغراض. عتالة موسمية. عملت في الحقول والمقاهي. كنت أملأ معدتي على الأقل، بخبز من عرق جبيني. ولما استقرّ بي العمل، رحت أشعر بشوق إلى الكتاب أو إلى أي منشور أو بيان. مرة رآني رجل أمام محطة الوقود. كنت أقرأ. لفته أني أقرأ. دعاني بـ «يا ولد». قلت له: لي اسم. اسمي نادر. عاد ودعاني يا نادر. هل تحب القراءة؟ أومأت برأسي. قال: تعال. ومشيت خلفه إلى بستان كبير، بعيد عن البلدة. ووسط البستان بيت بسقف قرميدي...

أطعمني. ألبسني. طمأنني عندما قال: تنام هنا، في غرفة تحت الدرج، قريباً من مسكبة الزهور وجلالي الخضار.

المعلم نصّار، كان غريب الأطوار. عندما يُحضرني ليتحدّث معي أو ليطلب مني أمراً، كان يصمت ثم يتنحنح ثم يصمت. لا تفك عقدة لسانه إلا عندما يسألني عن الكتاب الذي أقرأه. كان كاتباً. مرة طلب مني أن أسرد له ما قرأت. لم تكن موهبة الشفهي قد راودتني. تأتأت. تلعثمت. ثم قال لي حسن وصرفني. لم يسألني عن أهلي. لم يقل لي مَن أنت؟ اعتبرني ولداً من أبناء بلدته.

لم يكن كريماً ولا كان بخيلاً. كان معتدلاً في كل شيء. أشتغل في البستان عندما يطلب مني، ثم رحت أعمل في البستان من دون أن يطلب مني. ما كنت آكل إلا عندما يعرض عليَّ، ثم صرتُ أُعدّ الطعام وأدعوه لوليمتي... نوع من البنوّة أو شيء من الأبوية في العلاقة.

بعد أسبوعين، خيَّرني، بين أن أذهب إلى مدرسة أو أن أعمل في البستان. تشاطرت عليه: أعمل في البستان بعد عودتي من المدرسة. وهكذا كان، وفي آخر العام الدراسي أجرت بعثة فرنسية مباراة بين التلامذة. فزت بالمرتبة الأولى. فرح المعلم نصّار، وقال لي: حضر نفسك للسفر. أريدك أن تتعلّم أكثر.

ماذا أقول عن المعلم نصّار؟ ما عرفته عنه، أنه كاتب ومتقاعد، وأنه لم يتزوّج. آثر الوحدة على العائلة. يعيش من تقاعده وبعض ما يجود به البستان الكبير. هل كان مثل أب لي؟ لا. أرادني أن أبقى على مسافة منه. ولكن، عندما قرأت كتبه، عبرت المسافة التي تفصلني عنه. تعاملت معه وكأنه صديقي، مع ما بيننا من فارق عمر طويل. الصداقة مرتبة أرقى من الأبوّة.

إذ أذكره، تناولني مخيلتي فتاتاً من ماضيَّ الخاص، ووليمة من ماضيَّ مع المعلم نصّار. بسببه غفرت لبعض اللبنانيين عنصريتهم. إعلامهم كان أحياناً يهين شعباً برمّته وبلاداً بحضارتها. الأكثرية لم تكن كذلك. الذين استغلّونا كيد عاملة رخيصة، تسبّبت بكثير من الظلم إزاءنا، نحن السوريين. ظلمنا «رب عملنا» القاسي، وظلمنا اللجوء، بحلولنا في وظائف اللبنانيين المتدنيّة... جعلوا الفقراء ضد الفقراء. لعبة عنصرية ويمينية قذرة.

المعلم نصّار، أمّن لي منحة دراسية في فرنسا. علاقته بالإفرنج، علاقة حضارية. وفي فرنسا، تعلّمت وتفوّقت. استبدلت حرفة القراءة، بتأليف الأرقام. نجحت في اختصاصي. وصرت بعد أعوام، واحداً من أبرز العاملين في قطاع الاتصالات، ولي مؤسستي في إنتاج البرامج. وأشارك في المعارض الدولية، وأحل ضيفاً على الشاشات، بعد عودتي من زيارة لرئيس أو حاكم.

لم يمُت المعلم نصّار بعد. ظل معي بعد مفارقته الدنيا. صورته تتصدّر غرف مؤسستي الكبيرة، وكلما زارني صديق، رويت له القصة التي كتبتها الآن.

شكراً للبنان. فليسامحنا، إذا أسأنا. ونحن نسامح من أساء إلينا. وأفدح ما ينقص حياتي، أنني أنتمي إلى بلاد عاشت التوحّش الديني والسياسي والإثني والطائفي... هل سأعود إلى بلادي؟ طبعاً، وعن طريق لبنان.

* كاتب وصحافي لبناني

سياسة

الخروج من السياسة

سحر مندور*

في سوريا، خرج العشرات ثم المئات فالآلاف من بيوتهم/ن للمطالبة بإسقاط نظامٍ سياسيّ. بعد خمس سنواتٍ تقريباً، يخرج اليوم الملايين من سوريا إلى العالم يطالبونه أولاً بالحماية. الحماية من النار، والحماية من انعدام الحياة.

الخروج الأول سجّل اللحظة السياسيّة الأولى التي اشترك في صياغتها الحشد، المتظاهرون والمتظاهرات، أهل البلد، بعد عقودٍ من حكم جماعةٍ حرّمت السياسة في الحيّز العام. نحرتها. الخروج الثاني يسجّل اليوم عودة السياسة إلى الغرف المغلقة، في بلادٍ أخرى، تشرف على «الحدث»، قبل أن تدير الوجه نحو صياغة تتماته. خرج الناس لصناعة السياسة وأعيدوا إلى تلقّيها، تجرّدوا من الرشد السياسيّ بعد طيف امتلاكه لبرهة، ثم حُدّد لهم إطار وجودٍ ضمن القصور المعيشيّ: الناس يحتاجون إلى إنقاذ.

لا تجوز المقارنة بين حربيْ لبنان وسوريا. معظم المستويات تنفي نفسها عن هذه المقارنة لاختلاف الخصوصيات والواقعين. ومع ذلك، فإن الشيء بالشيء يُذكر، في ركنٍ من الذاكرة يتكدّس فيه معاش الحرب. الملجأ، الحواجز، المشاهد، العلاقات.. لكنها، في الحالات التي شهدتها ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، ما كانت تتسم بالصورة. ما كان في الحياة خبرٌ عاجل. ما كان فيها بثٌّ مباشر. ما كنا نرى، وإنما نسمع أحياناً وعبر المعارف. وإذا حُكي عن فظيعةٍ، يبقى الشكّ رفيق الحديث. فلربما كانت خيالاً، كذبة. اليوم، اختلفت الحال. ومع ذلك، إذا أخَذت العينُ مسافةً من ثقل الراهن السوريّ، ثقل الجريمة في حاضر حدوثها، تظهر للإعلام المكثّف حول الحرب صفةُ الغائية. فقد أتاح التفاصيل، كما أتاح الإجتزاء، التلاعب، وأتاح الكثافة. جثثٌ فوق جثثٍ، عنفٌ فوق عنفٍ، وصعدت «داعش»، خنقت العين بإنتاجها، حتى أُلغيت تقريباً أرض الحدث من الصورة، إما بسبب نواقصها في العلاقة مع السياق أو بسبب كثافتها في الحضور حدّ خسارة الاستثناء. بالطبع، لإسكات الصورة المحليّة أسبابٌ أخرى غير إعلامية، لعلّ أبرزها السبب السياسيّ. في المعركة، إخراس الصوت المحليّ هو ورقةٌ رابحة لديكتاتور كما لمروحةٍ من أطراف المعركة سواه. وقد ترافق إسكات الصوتُ المحليّ مع خروج السياسة من الحيّز العام. والشيءُ بالشيءِ يذكّر، هنا أيضاً.

ما بعد الإجتياح الإسرائيليّ لبيروت ومقاومته تحت تحقيق انسحابه، استباحت الحيّز العام حروبٌ عنقوديّة، لا تكاد واحدةٌ تجد وقف إطلاق نارها حتى تستعر أخرى. في هذه المرحلة من العمر اليافع، ما كان المحيط العائلي والمدرسيّ والعام يحكي بشيءٍ من السياسة. كان يحكي بإنهاكٍ عن المساعدات، المساعي، الضحايا، الأحداث، يومياتها، واليوميات إلى جانبها. ليس تأقلماً مشتهى، لكنه واقعٌ لا محالة. كما عاش الناس في بيروت الحرب الأهلية، ترينهم عاشوا في واقع العراق، في واقع «عقد الجزائر الأسود»، وفي واقع سوريا اليوم بشناعةٍ منفلشة وتصاعدٍ حادّ، شديد الدموية. تلك الصورة التي تم إسكات مضمونها السياسيّ وبالتالي عمق مسؤولياتها السياسيّة، صُنّفت «إنسانية» كتوصيفٍ علميّ أو بيولوجيّ لضحاياها. الإنسانيّة تحتاج إلى إغاثة، وهي فعلاً تحتاجها.

خرجت السياسة من الحيّز العام، وكانت بالكاد قد دخلته في سوريا. من ناحية السلطات، بدأ التفاوض «الجدّي»: موسكو، فيينا، جنيف، ومن يدري أيّ من المدن ستحمل اسم «طائفٍ» ما. من ناحية الناس، ما عاد في الأفق رهانٌ سياسيّ حرّ: الوصول إلى نهايةٍ للحرب الأهلية اللبنانية عجّز الشعب حتى عن المطالبة بتغيير الوجوه الدامية. انعجنت بنا، هذه الوجوه، وفرضت سطوةً على الحيّز العام خارجها. لم يتمكّن الناس من رفع «القدر» الآتي بذاتٍ غير عسكرية، وبعضهم لم يرد رفعه. أساساً، ما كان في الصورة سواها. مات من مات وعاش من عاش، وحلّت المصالحة على مجتمعات تلقّت المصالحة، كبتت مشاعرها تجاهها، ولم تعشها. يكون ذلك ممكناً لمّا يكون حتى التنفّس صعباً: فالشعوب التي انتقلت إلى مرحلة الإغاثة الإنسانية في سيرتها السياسيّة هي شعوبٌ ابتلعت كثير الموت والصعب.

© أنور عمرو

ارتفع الصوت الإغاثيّ في أرجاء العالم، فواجهه بعض الناشطين السوريين هنا وفي أوروبا برفضٍ لتجريد الإغاثة من البعد السياسيّ. أتى ذلك بغير قوّة. لهم/ن، بدا البعد الإغاثيّ كتجريدٍ للضحيّة من صوتها السياسيّ. انتقدوا/ن في الندوات والإعلام تلك الفيديوهات الخالية من السياسة، والتي سعت إلى تقريب الحال من أفهام مواطني أوروبا، وقد نفّذتها منظمات إغاثةٍ عالمية مثل «سايف ذى تشلدرن». وفي هذا النقد بعض ترفٍ ليس في مستطاع المغدقين/ات في الصعب. جهود الإغاثة تحتاج إلى تفادي الإلتباس وأسئلته، لتحشد خلفها مَواطن الدعم. الفصل بين البعدين السياسيّ والإنسانيّ هو إشكاليّ على عدّة مستويات، لكن التخليّ عن الإنسانيّ كرمى لعينيْ السياسيّ في سنواتٍ كهذه هو ترفٌ. كما أن إسكات السياسة في الحيّز العام ليس واقعاً مسقطاً من أعلى فحسب، فهو أيضاً نتيجة واقعها في هذا الحيّز العام. على مرّ السنوات الخمس الأخيرة، لم ينشأ تحت النار خطابٌ سياسيّ يتماسك في تقديمه للناس قراءات مغايرة، ولا نشأ حول السياسة حراكٌ نقديّ ذاتيّ يبقيها واعية لواقعها. لم تكن الأرض السياسية خصبة، فما استعصى إسكاتها.

الخطاب السياسيّ خارج أروقة الأنظمة العالمية، بقي حتى اليوم قطبياً. الحياة والموت يأتيان للدلالة على إجرام نظامٍ أو للتأكيد على فساد ثورة. ثنائية طحنت كلّ خبرٍ ومأساة وموقفٍ واسم صاروخٍ وبرميل، ساقتها كأمثلة على صوابية موقف، صوابيته القاطعة. القطبية السياسية استهلاكيّة. لا تنتج غير نفسها، تعيد إنتاج نفسها. ينتصر الإنسانيّ مجرّداً من السياسيّ لمّا تضحي يوميات المصيبة وقوداً للقطبيّة السياسيّة. فيخرج الأمل عنها، ليتمنى شقّ حدودٍ وسجونٍ، بلوغ بيتٍ، حفظ حياة. معاندة أحقيّة ذلك هي ضربٌ من الوهم.

الخروج من الحيّز السياسيّ إلى الحيّز الإنسانيّ هو انتقالٌ لهذا الشعب بين موقعين لم يألفهما فعلياً في زمنه الحديث. عاش الناس في سوريا لعقودٍ ممنوعين من الحيّز السياسيّ بالقوة طبعاً، ولكن أيضاً مقابل مكتسباتٍ تدجينية لعلّ أبرزها الحماية من بلوغ «الحيّز الإنسانيّ». لن نكون «لبنان» ولا «العراق»، وتلك «مكافأة» البقاء خارج السياسة.

إن الإبقاء على الحياة شكّل «مكافأة» الخروج من السياسة.. وها هو اليوم يشكّل ظرف استعادة الحياة، بعد هذا الخروج.

*روائية ومحرّرة ملحق «فلسطين» في جريدة «السفير»

مجتمع مدني

منظّمات المجتمع المدني ومدّ الجسور

ربيع بركات*

قد يكون لبنان، كدولة، مترهّلاً إلى حدٍ يعجز معه عن تقديم مقاربة ناضجة للتعامل مع قضية اللاجئين السوريين، تُقلّص من تبِعات الأزمة إنسانياً واجتماعياً واقتصادياً، وتُساعد على توظيف الميزات التفاضلية التي يتمتع بها اللاجئون لخدمة السوريين واللبنانيين معاً. وقد يعاني المجتمع اللبناني من ثقوب في ذاكرته الجمعية لم تُعالَج بعد منذ طيّ صفحة حربه الأهلية، ومن استقطاب سياسي راهن يصعب زواله في المدى المنظور، ما يحول دون قدرته على احتواء التحدي الهائل الذي أنتجه نزوحُ ما يزيد عن مليون إنسان سوري إليه. لذلك، فالخلل في إدارة أزمة اللاجئين أمرٌ مفهوم منطقياً، خصوصاً إذا ما قيس هذا البلد بدولٍ تتجاوزه بأضعاف لناحية الإمكانيات المادية والجغرافية والبشرية، وتتفوق عليه بأشواط من حيث متانة أجهزتها البيروقراطية، وبرغم ذلك تعاني من تعثّر في التعامل مع مسألة اللاجئين، كما في بعض أوروبا مؤخراً، أو الشرق الأوسط قبل ذلك وبعده.

© أنور عمرو

على أن الفراغ الذي خلّفته الدولة اللبنانية نتيجة ظروف عجزها الذاتية، فضلاً عن الصعوبات الموضوعية، أفسح المجال أمام كمٍ كبير من منظمات المجتمع المدني للعمل في مساحات مختلفة تتصل بقضايا اللاجئين، وسمح لها بتوسيع هوامش الجهد الإغاثي والحقوقي الخاصة بهم. كما أعطاها حافزاً إضافياً لخلق روابط بين المُجتمَعَيْن، الضيف والمُضيف، في ظل ظروف سياسية وأمنية محلية وإقليمية، لا تُساعد على مدّ الجسور.

لقد عمدت جهات رسمية لبنانية إلى معالجة بعض ما كان يعتَوِر وضع اللاجئين، بعد طول غياب عن الساحة ساهم فيه شحّ الدعم المالي الخارجي، وسوء التخطيط والإدارة المحليَين. فمن الناحية التربوية مثلاً، ومع بداية العام الدراسي الأخير، أصبح التسجيل في المدارس الرسمية اللبنانية لغاية الصف التاسع مجاني، للأطفال اللبنانيين والسوريين على السواء (بعدما كان يشتمل على رسوم سنوية وتكاليف أخرى)، ما يسمح برفع عدد المسجلين السوريين في الفئة العمرية ما بين 3 و 14 عاماً إلى نحو 200 ألف لاجئ، في حين كان العدد في العام الماضي يقتصر على حوالي 106 آلاف. علماً أن مبادرة من هذا النوع، كما غيرها الكثير من المبادرات الرسمية، ما زالت تعاني من نقص يتمثّل في عدم دمجها العناصر السورية المنتجة في دورة الإنتاج المعرفي - أي الأساتذة السوريين في هذه الحالة، حيث أن التعليم حُصر بالمُدرّس اللبناني فقط - على أي حال، فقبل المبادرة هذه التي أنتجها تعاون وزارة التربية والتعليم العالي في لبنان مع «المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين» ومنظمة «اليونيسف» التابعة للأمم المتحدة، بعد أربع سنواتٍ ونيّف على اندلاع الأزمة، كان عددٌ من منظمات المجتمع المدني يبذل جهوداً كبرى لسد جانب من هذه الثغرة وفق إمكاناته. هكذا، مثلاً، قامت جمعية «جسور» السورية بالتعاون مع مدارس لبنانية كـ«جمعية المقاصد الخيرية» من أجل تأمين مستلزمات تعليم مئات اللاجئين، قبل أن تؤسِّس المنظمة لتعاون مع جامعات عالمية مرموقة، من بينها جامعة «كامبريدج» في بريطانيا التي تقدّم منحة سنوية في إطار هذا التعاون.

أما في مجال الدفاع عن حقوق اللاجئ الطفل، فقد عملت جمعياتٌ محلية غير حكومية على التصدي لتحديات، بعضها يتّصل بسوء الأحوال المعيشية للاجئين، وبعضها الآخر مردُّه إلى عادات اجتماعية مُقيّدة. فقامت بتنسيق برامج تؤسس لخلق بيئة مشجعة على التواصل البنّاء بين اللبنانيين والسوريين، على اعتبار أن الهمّ في هذا الإطار إنسانيٌ مُشترك، بل إن جانباً منه يتعلّق بعوامل تؤثر على قاطني البقعة الجغرافية نفسها. ومن بين المبادرات مثلاً تلك التي تنظمها جمعية «حماية» اللبنانية، التي تعمل على تقديم الدعم النفسي والاجتماعي للصغار المُعنّفين، في سياق أنشطة جماعية تضم في عدادها مشاركين سوريين ولبنانيين.

توازياً، وفي إطار الدعم الصحي، تقوم جمعيات محلّية برعاية برامج لتأمين المياه والصرف الصحي والنظافة الصحية، أو ما يُطلق عليه اصطلاحاً تعبير WASH (Water, Sanitation and Hygiene) يستفيد منها الجانبان. ومن بين هذه الجمعيات تبرز «مؤسسة عامل»، على سبيل المثال، التي ترعى، إضافة إلى أنشطة في مجالات إغاثية وتربوية، مشاريع تعالج المياه في مناطق ذات تجمعات سكانية يعيش فيها لبنانيون وسوريون جنباً إلى جنب.

وفي سياق المشاركة في تأهيل البنى التحتية، تقوم منظمات محلية، مثل «يوتوبيا»، بإشراك سوريين ولبنانيين في ورش لتحسين الأحياء التي يعيشون فيها والطرق التي يسلكونها يومياً (تقوم أيضاً بتجميل مناطق الاشتباكات التقليدية في طرابلس مثل باب التبانة). وفي الإطار التربوي، تعمل جمعيات مثل «تواصَل»، في إطار نشاطها الذي يركّز على تنمية قدرات ومواهب لبنانيين وسوريين وفلسطينيين، على خلق مساحات من التفاعل بين هذه البيئات الثلاث، وهو ما يدلّ عليه اسمها الذي قامت لأجله. وفي العمل البيئي، ثمة من يعنى بعملية إدارة النفايات وإعادة تدويرها في التجمعات السكانية للاجئين كـ Arcenciel (جمعية محلية مُسجّلة في لبنان وفرنسا). ومن بين الجمعيات اللبنانية التي يتّسع نشاطها ليشمل مروحة واسعة من المجالات تبرز «مؤسسة مخزومي»، التي توفّر، فضلاً عن عملها الإغاثي والصحي والإنمائي، دورات تدريب مهني يشارك فيها لبنانيون وسوريون، وتُخرّج تالياً دفعات مختلطة من الجانبين.

ما ذُكر أعلاه مجرّد عيّنة من الجمعيات اللبنانية المحلية التي تعمل بالتعاون مع منظمات دولية كـ«المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين» و«برنامج الأمم المتحدة الإنمائي» و«اليونيسف» في الأمم المتحدة، فضلاً عن هيئات في الاتحاد الأوروبي وأخرى لدول أوروبية بعينها (مثل DFID البريطانية و GIZ الألمانية)، وتوازياً أو بالشراكة مع منظمات غير حكومية دولية (مثل Save the Children و«أطباء بلا حدود»...). وأهمية دورها يُستمد أساساً من كونها منظمات محلية، تقدّم دعماً تربوياً وصحياً وبيئياً وتنموياً ونفسياً واجتماعياً، يساعد على مدّ جسورٍ بين اللبنانيين والسوريين، وتمتين أواصر العلاقة بين الجانبين، علماً أن هيئات الأمم المتحدة في الأزمات المُمتدة زمنياً (كما هي الحالة السورية)، تعمد مع الوقت إلى اشتراط تخصيص جزء من الموارد والمساعدات (التي تقدّمها للمنظمات غير الحكومية) لإعانة المجتمع المُضيف وتنمية قدراته، توازياً مع عملها الإغاثي والتنموي الذي يستهدف الضيوف اللاجئين.

وبرغم كل نقدٍ - وبعضه وجيه - قد يطال تنامي ظاهرة المنظمات غير الحكومية وآليات عملها وتمويلها وإسهامها في مزيدٍ من تآكل سيادة الدول على مستوى العالم (وليس هذا مجال بحثنا هنا)، إلا أن الجمعيات تلك باتت أداة لا غنى عنها في التعامل مع الحاجات الإنسانية في عالم يُمعن في تحديد ملامحه ما بعد الحداثية يوماً بعد آخر. أما في لبنان، ففي ظل الخلل الذي تعاني منه أجهزة الدولة، واتساع الجراح الاجتماعية غير المُعالجة على مدى أزماته المستمرة، ثمة أدوارٌ بالغة الأهمية تقوم بها تلك المنظمات اليوم، لعلّ أعمقها تأثيراً على المدَيَين المتوسط والبعيد، يتمثل بالتقارب الذي تنتجه مشاريعها، برغم الظروف والتّوترات غير المُساعدة، بين البيئة اللبنانية المُضيفة وضيوفها السوريين.

* كاتب لبناني

مشروع

مشروع «سوريا ببالي» رحلة في التراث

طارق عوّاد*

مشروع «سوريا ببالي»، هو فكرة وتنفيذ جمعية «بلادي» بالتعاون مع فريق «عيون سوريّة»، وبإدارة AVSI، وبتمويل من منظمة اليونيسف. وقد استهدف 2000 طفل سوري ما بين عمر 5 سنين و 15 سنة، في كل من النبطية و الخيام ومرجعيون وصيدا في الجنوب اللبناني، وجونية في شمال بيروت.

إنه ثاني مشروع لـ«بلادي» يطبّق في لبنان مع اللاجئين السوريين، حيث اقتصرت نسخته الأولى «سوريا ببالي 1» على يوم واحد لكل مدرسة، وبذلك كان يعتبر أول مشروع تربية على التراث مع الأطفال السوريين اللاجئين في العالم.

تم اختيار المدربين من قبل فريق «عيون سوريّة»، والذين دُرّبوا بشكل مكثف ولمدة أسبوعين، على أصول التربية على التراث، والتعامل مع الأطفال، والتربية من خلال اللعب، من قبل فريق متخصص بالتربية وعلم النفس والآثار والتاريخ والتراث، كما دُرّبوا على المهارات الحياتية أيضاً.

ويقوم المشروع بتنفيذ مجموعة أنشطة تربوية لا صفّيّة، هدفها أن تخلق في ذهن الطفل صوراً وومضات عن وطنه الأم سوريا، الخالية من الحرب والدمار، بالإضافة إلى تعريفه بهويته السوريّة، وتعزيز انتمائه باستخدام التراث الذي يعتبر أحد مكونات الهوية لأي شعب مع الإشارة إلى أن الأطفال السوريين اللاجئين في لبنان قسمان: الأول لم يعرف سوريا نهائياً، والثاني لا يملك سوى صور عنها في ذاكرته.

© علي الشيخ

© علي الشيخ

تنفيذ النشاط

تم تطبيق المشروع من خلال ابتكار مجموعة ألعاب تشكّل خلال أربعة أيام متواصلة رحلة في التراث السوري، حيث تم تصميم خريطة كبيرة لسوريا خصيصاً لهؤلاء الأطفال تتناسب مع أعمارهم، يجلسون عليها، ويتعرفون على جغرافيتها، من خلال تفاصيل جغرافية مبسطة، كالجبال والأنهار والسهول والبادية، يميزونها من خلال الألوان، ويقومون برحلة بين مدنهم التي ينتمون إليها، من خلال تمرير سيارة صغيرة على الخريطة.

وأيضاً، تم تثبيت صور للحيوانات والنباتات التي تعيش في سوريا، وكل صورة في الإقليم الجغرافي الذي يناسبها، بالإضافة إلى ستة مواقع أثرية ثبتت عليها مسبقاً، وتعرفوا عليها خلال الأيام الأربعة.

فمثلاً قام الأطفال ببناء مجسم لقلعة حلب وقلعة الحصن، من خلال استخدام المكعبات الخشبية وقواعد مصنوعة من الورق المقوّى، وجلسوا على خريطتين واحدة لمدينة دمشق القديمة، والأخرى لمدينة تدمر، يتم التعرف من خلالها على تفاصيل كل من المدينتين، أما نواعير مدينة حماه فتعلموا كل شيء عنها من خلال مجسم خشبي تعليمي.

وتم تثبيت هذه المعلومات من خلال ألعاب ترفيهية تلقّى الأطفال من خلالها معلومات بشكل مباشر، مثل لعبة «بينغو» التي تحتوي صورها على تفاصيل من المواقع الأثرية السورية، والقفز على المربعات التي هي عبارة عن صورة للغطاء النباتي في سوريا.

ولا يمكننا الحديث عن التراث السوري من دون أن نفكر بالحكواتي الذي كان يعمل بكامل أناقته الدمشقية، ويطوف من خلال قصصه في المحافظات السورية، زائراً أجمل المناطق من خلال شخصيتين، هما «كركوز» و«عواظ»، اللذان لا تخلو قصصهما من الفكاهة و النكتة.

كانت الصعوبة التي تواجه هذا النشاط هي عدم قدرتنا على رؤية المواقع السورية وزيارتها، فكان هناك بدلاً عن الجولة، فيديو لمدة عشر دقائق، يتحدث عن سوريا وآثارها، وبعض العادات والتقاليد فيها.

وفي نهاية كل يوم هناك الفقرة المفضلة للجميع، وهي الاحتفال، أي الغناء والرقص، وهنا اعتمد المشروع مجموعة أغانٍ من ألحان تراثية، تم التعديل في كلماتها لتخدم أهداف البرنامج أكثر.

تجاوب الأطفال مع المشروع و تحقيق الأهداف

يقول الطفل محمد من مدينة حلب لأحد المدربين: «بس أروح على حلب رح اتصور على باب القلعة وابعتلك الصورة».

كان هناك تخوف كبير بعد كل هذا التحضير، من أن يكون وقع هذا البرنامج قاسياً على الأطفال، ولكن حدث العكس حيث كان هناك تجاوب كبير من قبلهم، فراحوا يرددون الأغاني من أول يوم، وهم في سعادة كبيرة، ويسألون أهلهم عمّا سمعوه عن سوريا، وهل كل ما ذكر عنها، من آثار وتراث وطبيعة، هو حقيقة.

إحدى مدرّسات منظمة AVSI قالت لنا: «بعدما انتهى البرنامج أصبحت كل أمثلة الدروس التي يطرحها الأطفال هي عن قلعة حلب، وعن النواعير وغيرها من القصص والمعلومات، التي مُرّرت لهم من خلال اللعب والخرائط، فكان هذا ايجابياً بالنسبة إلينا. وقد حاولنا أن نستفيد من هذه النقطة تربوياً، وأن نقتبس من المشروع أفكاراً حول سوريا لخدمة دروسنا».

بدوره، يوضح أحد المدرسين: «أصبح الأطفال يعرّفون عن أنفسهم بحسب المناطق التي ينتمون إليها، بعدما كانوا يذكرون اسم القرية اللبنانية التي ولدوا فيها. في الحقيقة أصبحوا أكثر معرفة بالمكان الذي ينتمون إليه، بعدما كان غامضاً ومظلماً وتسوده الحرب».

أما المدربون فكان تأثير البرنامج عليهم كبيراً، وأصبح الهم لديهم أن يكون هناك مشروع على رقعة أكبر، وأن يقدروا يوماً ما على العودة إلى سوريا وتطبيق البرنامج للأطفال فيها بعد انتهاء الحرب.

في نهاية البرنامج، كان بعض الأطفال في كل مركز يأتون إلينا ويخبروننا أنهم عندما يعودون إلى سوريا سوف يزورن أوغاريت في اللاذقية، أو قلعة حلب، أو سيذهبون لركوب الجمل في تدمر، أو للسباحة قرب ناعورة حماه، وأصبحوا يفكرون أكثر بما قد يميز تفاح دمشق عن بقية تفاح العالم.

إحدى المشرفات من AVSI قالت في نهاية البرنامج: «لقد أثّر المشروع في ذاكرتي كلبنانية بشكل كبير، حيث أصبحت أود معرفة دمشق وحلب وغيرهما من المدن أكثر، فكيف لي أن أتخيل ما هو مدى تأثير هذا البرنامج على الأطفال؟».

*مدير مساعد لمشروع «سوريا ببالي» في جمعية «بلادي» ومؤسس في فريق «عيون سوريّة»

مبادرة

مثل الدفء الذي يبثّه الحساء في الجسد

سحر شرارة*

في ليلة عاصفة من شتاء عام 2013، شعرت باربرا عبديني مسعد بالبرد وهي في شقتها الدافئة في بيروت. لم تتمكن من النوم وهي تفكر بالعائلات التي تنام داخل خيم في البقاع من دون وسائل التدفئة. وفي سعيها لإيجاد سبيل للمساعدة، قررت زيارة أحد مخيمات اللاجئين في زحلة بنفسها. وإلى هناك صارت وجهتها في كلّ عطلة نهاية أسبوع حيث تقوم بالأمرين اللذين تجيدهما: إعداد الطعام والتقاط الصور.

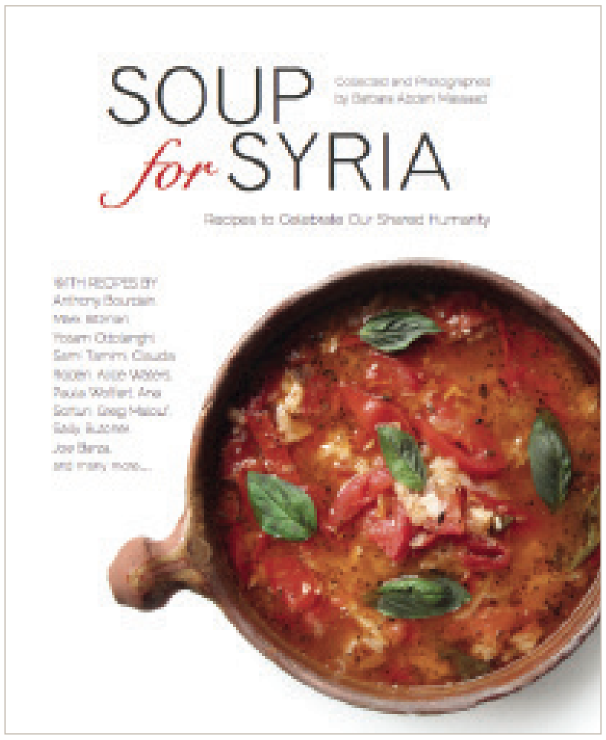

© باربرا مسعد

يزخر كتاب «حساء من أجل سوريا» بصور نابضة بالحياة لأطباق تحتوي على الحساء، ووجوه تحدّق من على الصفحات اللمّاعة. أمّا النظرات فهي ليست إتهامية، بل هي لعيون أطفال يبتسمون لك، ونساء يتحدثن إليك. فبالنسبة إلى عبديني مسعد، «عيون الناس تكسر حواجز الكراهية» أما التفاصيل كالجنسية، والدين، والمنطقة التي ينحدر منها صاحب الوجه، وفي أيّ صفّ يقف من الحرب في سوريا، فهي تفاصيل غير مهمة.

حين نتخطّى الأوضاع المزرية للمخيم، وننظر إلى الوجوه التي خشّنتها التجارب والمآسي والظروف المعيشة المتردية، لا نجد سوى أشخاص مثلنا... مجرد بشر. بنظراتهم المحدِّقة - وهي السمة الطاغية على صور الكتاب - التي تعكس علاقة إلفة مع المصوِّرة، وتبعث الدفء في الصفحات والقلوب. ويشكّل الكتاب انعكاساً لشخصية باربرا مسعد على الورق، فهو يتمحور حول موضوعين عزيزين على قلبها، الطعام والتصوير، ويحاكي أيضاً طبيعةً إنسانية كريمة، وموهبةً في التواصل مع الآخرين والتفاعل معهم بسهولة.

الكرم ليس غريباً عن ثقافة الطعام

لقد تبلوَر هذا المشروع بسلاسة، كما يجدر بكلّ المشاريع الخيّرة أن تتشكّل. فكان اختيار الحساء رمزياً: وهو الطبق المثالي لتجسيد الراحة والدفء والطواعية، يتشارك في احتسائه الكثيرون ويُقيتهم. ولهذه الغاية دعت باربرا أصدقاء وزملاء طهاةً لإرسال وصفات حساءٍ بغية تغذية كتاب الطهو من جهة، ولتتمكن من مواصلة زياراتها الأسبوعية لتقديم الطعام إلى اللاجئين في المخيّمات من جهة ثانية.

وعلى هامش دردشة خلال حفل عشاء في لندن حول جهودها الإغاثية تلك، عرضت باربرا رسماً تخطيطياً أوّلياً للكتاب أمام ميشال مشبَك، الذي سبق أن نشر كتابَ طهو من تأليفها بعنوان «منقوشة من فرن على زاوية الطريق في لبنان». فتعاطف مع فكرة الكتاب على الفور، وهو الفلسطيني الأصل الذي هربت عائلته إلى لبنان ومن ثم إلى الولايات المتحدة بسبب الحروب التي لاحقتها تباعاً. وهكذا بدأت تتضح معالم مبادرة «الحساء من أجل سوريا».

ولتمكين المشروع، بادرت كل من دار «إنترلينك ببليشينغ» وباربرا إلى التواصل مع معارفهما، والاتصال بطهاة مشهورين من العالم لتبدأ وصفات الحساء بالتدفّق. وقد شارك هواة إعداد الطعام وطهاة محترفون باقتراحاتهم الخاصة حول تحضير الحساء وتنكيهه..

ومن أصل مئات الوصفات التي تم جمعها، وصل 80 منها فقط إلى صفحات الكتاب المئتين وثمان. وفي هذا الإطار، تقول مسعد: «إستندت معايير انتقاء الوصفات إلى مدى سهولتها وملاءمتها». هي التي استضافت في منزلها خلال مرحلة الإختيار، فريقاً من عشرة أشخاص تولّوا معاً مهمة تحضير الوصفات والتثبّت منها، فكانت المرحلة «الأكثر متعةً في التجربة بأكملها».

وقد أسهمت في الكتاب أسماء مرموقة في عالم الطهو، ومن ضمنها كتّاب ونُقّاد وناشطون مشهورون (مثل مارك بيتمان، أنطوني بوردان، سالي باتشر، جريج معلوف، باولا ولفرت)، وشخصيات من برامج تلفزيونية، وأصحاب مطاعم معروفون ومدوّنون متخصّصون في مجال الطعام، إضافة إلى حفنة من عشاق الطعام مثل باسكال حارث، التي تولت مهمة التصميم الغرافيكي للكتاب.

كما تحدّث المشاركون عن مساهماتهم والقضية التي يتبنّونها على وسائل التواصل الاجتماعي، ما ساعد في الترويج للمشروع في سبيل جمع التمويل اللازم، كما شجّعوا على مشاركة صور وتعليقات عن الوصفات التي يطهونها.

وقد حقق الكتاب نسبة مبيعات واعدة حتى قبل إطلاقه رسمياً. وبحسب مسعد، يتوقع الناشر أن يصل عدد النسخ المباعة في أنحاء العالم إلى حوالى 250 ألف نسخة. وفي هذا الإطار، تضمن حفل جمع التبرعات الذي أقيم في بيروت لإطلاق الكتاب وتوقيعه أنشطةً عديدة شملت معرضاً للصور، ومنصّات لبيع الحلوى ولتذوّق الحساء في حضور عدد من المساهمين في العمل. وقد بادر المتطوعون إلى التبرع بالمكان الذي استضاف الحفل وبالمكونات اللازمة لعربات تذوّق الحساء، كما تكلفة طباعة الملصقات والصور المعروضة. ومن المفترض أن يُنظَّم في خلال الأشهر القليلة المقبلة عدد من الفعاليات والمناسبات التي تتمحوَر حول كتاب «حساء من أجل سوريا» ومنها حفل توقيع للكتاب في هولندا، وآخر في سيول على هامش مهرجان «آيجيو غوستا»، إضافة إلى إقامة جلسة حوارية في إطار «طاولة من أجل السلام».

إلا أن هذه الأنشطة ليست الوحيدة المرتبطة بالكتاب، إذ يشجع الموقع الإلكتروني لـ«حساء من أجل سوريا» (http://www.soupforsyria.com) على الانخراط في نشاطات مناسبة وذات صلة مثل «حفلات حساء»، ومبادرات لبيع الكتاب على النطاق الفردي، واقتراحات مشاركة في إطار فعاليات ومناسبات محلية أخرى.

ولكن الأهم هو التشجيع على شراء كتب الطهو مباشرة عبر الموقع لضمان أن يعود ريع 100 في المئة من العائدات إلى مفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين من أجل تمويل جهود الإغاثة الغذائية بشكل أساسي، إلى جانب تغطية تكاليف بعض الحالات الطبية التي لا تغطيها المفوضية.

(نص مترجم من الإنكليزية)

* أستاذة جامعية

هجرة

موسم الهجرة... إلى الموت

دارين الحلوي*

تتسع رقعة ظاهرة هجرة اللبنانيين إلى أوروبا، عبر قوارب الموت التي تقلهم من تركيا إلى اليونان، حيث تبدأ رحلة عبور حدود دول متجاورة قبل الوصول إلى ألمانيا أو الدانمارك أو السويد.

تغري هذه الدول اللبنانيين منذ سنوات. لكن أبناء الشمال اللبناني كانوا أول المهاجرين إليها وأكثرهم عدداً ضاقت بهم السبل. تراجعت فرص العمل أمامهم، وانعدم الإنماء في مناطقهم. أما الدولة، فحضرت بجنودها وخططها الأمنية. لم تعرف ساحات الشمال اللبناني هدوءاً منذ اندلاع الأحداث في سوريا. فقد التحق عدد من شبانها بالفصائل المقاتلة وذهبوا في رحلات الجهاد الى مدن سورية عدة. ووضعت أجهزة الأمن تحركات الكثير من الشبان تحت مجهرها. لكن هؤلاء شكلوا حالة لم تتفشّ في كل المناطق.

بل إن تداعيات عشرات جولات الاقتتال في طرابلس بين مسلحي باب التبانة وجبل محسن تسببت بتدهور اقتصاد المدينة، وانسحبت على دورها الاقتصادي الذي سجّل تراجعاً لم تشهده سابقاً.

مئات المحلات أقفلت أبوابها، وهجّرت الاشتباكات العديد من التجار الى خارج طرابلس، وتسبب انخفاض التبادل التجاري إلى شلل طاول كل القطاعات في المدينة وجوارها، مع ما يعنيه ذلك من تجميد مئات الآلاف من فرص العمل لسكان طرابلس. وبذلك ارتفعت نسبة العاطلين عن العمل وتفاقمت الأزمة الاجتماعية.

ضاق الخناق على شبان الشمال. أصبحت كل تحركاتهم مرصودة، وبات اقتصاد مدنهم ينازع تحت وطأة شلل يطاول كل المناطق المحيطة. إنعدمت الخيارات. كان اليأس خلفهم والبحر أمامهم. اختاروا البحر علّه يحملهم الى برّ آمن.

أحلام هؤلاء صغيرة ومتواضعة، لكنها أصبحت ثقلاً على مدينتهم. وضّبوها في حقائب حملوها في مغامرة كبيرة، وقد تكون الأخيرة. ذهبوا وراء حلم يبحثون فيه عن وطن يعطيهم أسماء ولا يحسبهم أرقاماً تتحول سلاحاً في المعارك وأصواتاً في الانتخابات.

اليوم، تنزف مدينة طرابلس شبّانها، في ظاهرة ربما لم تشهد لها مثيلاً منذ انتهاء الحرب الأهلية قبل ربع قرن.

الآلاف منهم هجروها. اختاروا البحر بحثاً عن أرض جديدة لا ترضعهم اليأس والحرمان منذ نعومة أظافرهم. يرون أنفسهم أمواتاً في بلادهم، لكنهم يحلمون بأن يبعثوا إلى الحياة في لحظة عبثية، ربما.

يحلمون باختيار موتهم.. لا يريدون موتاً برصاصة طائشة أو تفجير أو معركة مع جبل محسن... أو في معارك سوريا التي أغرت المجموعات المقاتلة هناك المئات منهم وجنّدتهم للقتال في صفوفها.

يحلمون بعمل صغير يدر عليهم مالاً يكفيهم ليأكلوا ما يشتهون، بدل ان تتقطن افواههم من طعم البطاطا والحبوب التي لا تتكرر بأصنافها على موائدهم.

يحلمون بجني قليل من المال سيحررهم بلا شك من الارتهان إلى الأحزاب والطوائف وقادة المجموعات المسلحة الذين يتمولون من الزعماء.

© رسم لكريستال جلال

يرصد سياسيو المدينة اتساع هذه الظاهرة، لكنهم يجيبون بأن «لا أفق لهؤلاء في مدنهم، ولن يخرج لبنان من دوامة الشلل قبل انتهاء الحرب في سوريا.. فيما أولوية الدولة اللبنانية اليوم هي الحفاظ على الاستقرار والأمن في البلاد، بما يبعد شرارة النار المحيطة عنا».

لا يخفي الشبان المهاجرون أنهم يأخذون اللجوء، في إحدى دول أوروبا، من حصة السوريين الهاربين من الموت. ويعللون اقتحامهم هذا المجال بالاشارة إلى التداعيات التي خلّفها اللجوء السوري في منطقتهم، من ضغوط على الاقتصاد العام إلى المنافسة على فرص العمل بأجور زهيدة.

معظمهم يستحصل على أوراق سورية مزوّرة يؤمّنها المهربون، وتكفل لهم الحصول على لجوء سريع في أوروبا، وإبعاد خطر الترحيل.

ومع تضخم أرقام المهاجرين، لم تعد قطب هذه الرحلات مخفية. فالتجار الذين يشكّلون طرفاً من مافيات تتمدد وتتعدد مفاصلها لتصل إلى تركيا، يصولون ويجولون ويفاوضون الراغبين بالهجرة في وضح النهار. ففي شوارع المدينة، لا أحاديث تفوق بتشويقها أخبار المهاجرين السابقين، يتناقلها الراغبون باللحاق بهم.

في أحد الأحياء، كانت والدة مصطفى تنهي شراء الأغراض التي دوّنتها على ورقة أعدتها وهي تحصي الحاجيات التي تلزمه في رحلة سفره. ابتاعت من السوق القديم في طرابلس ملابس داخلية جديدة، وبعض الكنزات الصوف، خشية تعرض ابنها لبرد تأتي أخبار صقيعه من أوروبا عبر الهواتف وتطبيقات التحادث التي يتواصل من خلالها المهاجرون مع أهلهم.

وضّبت له الحقيبة بنفسها، ولم تنس أن تزوّده بعض المعلبّات التي لا شك في أنها ستنقذه من جوع ربما يدهمه بانتظار وصوله إلى ألمانيا. تخبر ام مصطفى من دون أي تردد بأنها سعت لإقناع ابنها بالهجرة إلى أوروبا. وتقول إن اغترابه لن يؤلمها، بل يوجعها أن تراه «مسلحاً يلتحق بالمجموعات التي كانت تقاتل خلال معارك باب التبانة وجبل محسن». تحمد الله على أن المعارك انتهت، لكنها «خلّفت وراءها جيلاً لم تتسنّ له الفرص لإكمال تحصيله العلمي وبناء مستقبله... البعض استشهد، والبعض أصيب، والأغلب بات يتسكع في أحياء التبانة، يدخّن النراجيل، وينتظر فرجاً لن يأتي».

تعرف جيداً المخاطر التي سترافق ابنها في رحلة عبوره من تركيا إلى اليونان قبل الوصول إلى ألمانيا، التي سبقه إليها المئات من أبناء حيّه. لكنها يائسة. تريد أن تنقذه من فشل بات محتماً.

تمثل هذه السيدة واحدة من أمهات الكثير من شبان غادروا المدينة هرباً من بؤسها. وهم يقولون إنهم يعيشون من دون حياة. أيامهم بلا أفق. تُركوا لأعوام طويلة منسيين في أحيائهم المهمشة.

نرافقها إلى منزل قريبتها، أم محمد التي تنتظر منذ سبعة أيام وصول إبنها إلى ألمانيا، أيضاً.

تجلس السيدة الستينية في منزلها الكائن خلف سوق الخضار في التبانة، ولا تفلت الهاتف المحمول من يدها. فهو الرئة التي تتنفس عبرها.. بل هو حبل سرّة جديد يربطها بابنها ويطمئنها عنه، عبر صور وأخبار وتسجيلات، يرسلها من مكان وجوده، وتسجّل خط سيره من تركيا التي غادرها بقارب مطاطي إلى اليونان.

تقول إنه «عانى وزوجته واطفاله الاربعة الكثير خلال انتقالهم من دولة إلى أخرى. يخبرني أنهم ينامون أحياناً في العراء والصقيع. حتى أن ابنته الصغرى، التي لم تتجاوز الأشهر الستة، تعاني من التهابات في الرئة بسبب البرد». في آخر تسجيل صوتي وصل إلى هاتف الوالدة يخرج صوت محمد مخنوقاً، تتقطع فيه كلماته..

تعرف امه انه يبكي ويقول لها إنه بخير و«إن المجدرة التي ملّ من أكلها في منزل أهله في التبانة، أفضل من كل جنات أوروبا». لم يكن يملك وظيفة تؤمّن له مدخولاً ثابتاً. أغرقه الدين وما عاد قادراً على تأمين قوت بناته الأربع. أغرته الأخبار الآتية من خلف الحدود عن تأمينات صحية وحياتية تمنحها الدول الأوروبية للاجئين. باع منزله بنحو عشرين ألف دولار، دفع الديون المترتبة عليه، وأعطى ما بقي من أموال للمهرّب الذي لا يمكن أن يضمن له وصوله إلى حيث يريد.

ينشط المهربون في مختلف مناطق شمال لبنان من طرابلس، مروراً بمخيمات اللاجئين الفلسطينيين، وصولاً إلى قرى عكار. يطلب هؤلاء مبلغاً يتراوح بين 2500 و 3000 دولار، ويتكفلون بنقل المهاجرين إلى تركيا بحراً، عبر مرفأ طرابلس. يصلون إلى مدينة مرسين، ومنها ينتقلون إلى مدينة إزمير حيث يلتقون بوسيط المهرّب، الرأس. بعضهم يقيم في فنادق رديئة، وبعضهم يبقيه المهربون لأيام في الطرقات. ولا أحد يمكنه أن يضمن الفترة الزمنية التي تسبق الانطلاق إلى اليونان. كل ذلك رهن بإشارة تأتي من المهرّب الذي يبقى مجهولاً حتى لحظة ركوب القارب المطاطي. وتشير المعطيات الميدانية إلى أن الأشخاص الذين يديرون شبكات التهريب هم من الأتراك، أما الوسطاء فهم من اللبنانيين والسوريين، ينشطون في المناطق التي تلقى فيها تجارتهم رواجاً. ويفوق طلب المهاجرين العروض المتاحة، لذلك تشاهد المئات منهم يفترشون أرصفة مدينة مرسين. وهم لا يتراجعون رغم كل المعاناة التي يضعهم المهربون تحتها. يتمسكون بالفرصة التي قد لا تكون متاحة في يوم آخر. لكن الأخطر إدراك هؤلاء أنهم يشترون الأمل من تجار الأرواح.

* صحافية ومراسلة «سكاي نيوز عربية» في لبنان

نساء

نساء لبنانيّات: هذا البحر ليس لنا...

لونا صفوان*

رحلات البحر ووصول بعض العائلات السورية إلى برّ اليونان بأمان، ألقت بثقلها على كاهل لبنانيات خيّرهنّ أزواجهن وآباؤهنَّ إما بالسفر عبر البحر بحثاً عن مستقبل أفضل، أو بالانتظار في بيروت، هنّ قررن البقاء.

تجلس كيلي (22 سنة) على كنبة والدها بالقرب من الشباك المُطلّ على البحر في منطقة الأوزاعي، تراقب الطائرة خلال هبوطها، ثم تقول: «أكره هذا البحر اليوم، كنا نجلس، كلنا، يومياً في هذه الغرفة المتواضعة، نأكل ونشرب ونضحك، ولكنهم قرروا المغادرة وأنا قررت البقاء».

حسم مايز صفوان أمره يوم قرّر التوجّه إلى أوروبا، ظناً منه أنها سوف تغيّر مجرى حياته. وانطلق في تشرين الأول الماضي مع 11 فرداً من عائلته من بيروت باتجاه اسطنبول بتركيا، ليستقلوا الباص إلى منطقة «إزمير» الساحلية. هناك، كانت القوارب جاهزة لتنقل المهاجرين إلى سواحل اليونان. لكن الرياح جرت بما لا يشتهي مركبهم الذي غرق في عرض البحر.

كيلي وميرنا، الابنتان الأكبر سناً، قررتا البقاء في بيروت وعدم الخوض في غمار مجازفة لا تشبههما. تروي الصبيتان الأسباب التي دفعت بوالدهما إلى اتخاذ القرار الصعب، ومنح البحر ثقته وتقول ميرنا: «قيل له إن الطريق سهل، وإن الوصول من اسطنبول إلى إزمير بسيط، وإن رحلة المركب لن تستغرق أكثر من ساعة، وإن الطقس جيّد ومعتدل في تلك الفترة، قيل له أيضاً إن رحلة الوصول إلى ألمانيا ليست بشاقة، ولكن عائلتنا لم تصل إلى شواطئ اليونان حتى».

عائلة كيلي وميرنا ليست العائلة اللبنانية الوحيدة المقيمة في بيروت والتي دفعت بها الحكايات المتناقلة على ألسنة المحيطين بهم إلى المجازفة في البحر، لكن الفتاتين قررتا أن ذلك البحر ليس لهما، تمنّتا التوفيق للعائلة، وجلستا تنتظران وصولها إلى بر الأمان، لكن هذا الأمر لم يحصل لأن الصفقة التي أتمتها العائلة كانت مشبوهة وغير موثوقة، أما موج البحر فكان غداراً.

وعلى المقلب الآخر، تتنقل مايا (35 سنة) خلال توضيبها البضاعة في محل تجاري بيروتي، تنظر إلى هاتفها تارةً، وتعود لتفقّد لائحة الأسعار تارة أخرى. هذه الصبية اللبنانية رفضت مغادرة بيروت مع زوجها الذي قرر التوجه إلى ألمانيا منذ أشهر، عبر البحر أيضاً. «هي مخاطرةٌ كبيرة، وبصراحة أنا لا أملك الشجاعة. وعلى الرغم من أننا لم نرزق بأطفال بعد ما يُسهّل التنقل والرحلة، ولكنني لا أريد الموت غرقاً».

ودّعت مايا زوجها الذي انطلق إلى «بودروم» في تركيا، ومن هناك استقل قارباً نجح في إيصاله بسلام إلى اليونان. اليوم وبعد 6 أشهر، ينتظر زوج مايا الانتقال إلى منزل منفصل عن المخيم الذي حضنه في ألمانيا لأشهر، وهي تنتظر الأوراق التي تؤكد استيفاءها شروط «لمّ الشمل»، كي تجتمع بزوجها في أوروبا لتبدأ قصتهما الجديدة معاً هناك. وتقول مايا: «نحن لبنانيون، ومشاعري لا تزال مختلطة. أظن أننا بسفرنا نحرم عائلة سورية من حق اللجوء، ولكننا لا نملك مستقبلاً هنا، 600 دولار شهرياً لن تكفيني إن رزقت بطفل، وأنا اليوم أطمح لتأسيس عائلة وأقترب من الأربعين كل ساعة. أردت المغادرة ولكنني تركت له المجازفة، وقلت لنفسي: «إن وصل وصل، وإن لم يصل يكون قد اختار مصيره بنفسه».

تتنقل سارة بين بيروت وطرابلس لدواعي العمل، زوجها استقر في ألمانيا أيضاً منذ سنة، وهي اللبنانية الطرابلسية تنتظر أيضاً «لمّ الشمل»، لها ولأطفالها بعدما رفضت خوض مغامرة البحر. يوم قرأت خبر غرق عائلة مايز صفوان اللبنانية، قررت التريث بالسفر. «يوم سمعت ما حصل مع تلك العائلة، اتصلت بالمكتب الذي أمّن لي ولطفليّ الاثنين رحلة في البحر، وقلت له إنني لن أغادر، منحت مقاعدنا لشخص آخر، أخافتني فكرة غرق مركب أستقله وحيدة مع طفليّ.. من سأنقذ أولاً عندها؟ إبني البالغ من العمر 6 سنوات؟ أو ابنتي الصغيرة؟».

وتتابع: «سأنتظر ما يسمّى لمّ الشمل، سنة، سنتين، عشر سنوات، ولكنني لن أمنح البحر فرصة سرقة طفليّ مني. نجح زوجي باجتياز تلك العقبات وتحدّى البحر، ولكن لا ضمانة مؤكدة لنا».

* صحافية لبنانية

مجتمع

أثرياء سوريا يعانون أيضاً جرّاء الحرب

شيرين قباني*

ليس الفقراء وحدهم من يعانون جرّاء الحرب المستمرة منذ نحو خمس سنوات في سوريا. الأثرياء أيضاً يعانون وإن بدرجة أقل. صحيح أن معظمهم لم يذق طعم التشرد أو اللجوء إلى خيمة في العراء، والعيش بانتظار المساعدات من هنا وهناك، وتمكنوا بفضل أموالهم من شراء منزل في لبنان، أو استئجاره، أو حتى حجز أجنحة في الفنادق، لكنهم، كما جميع السوريين، خسروا الاستقرار وراحة البال، وتحطمت الآمال والاحلام.

يجلس أبو خالد (اسم مستعار) على كرسي بلاستيكي بلباس رياضي، في باحة مقهى في شارع عين المريسة في العاصمة بيروت، معظم رواده من كبار السن. يقول إنه يحب مشاهدة البحر لأنه يشعره بالراحة، ويأخذه في جولة من الاسترخاء والطمأنينة. قليلون هم الذين يعرفون أن صلة قرابة تجمعه بعائلة السيدة السورية الأولى أسماء الأسد. يأخذ حذره وينتقي كلماته بشكل دقيق عند سؤاله عن الوضع في سوريا وعن موقفه ممّا يحدث من «خبيط ولبيط» بين أبناء بلده، على حد تعبيره.

يروي أبو خالد أنه جمع ثروة ضخمة من التجارة في قطاع الأدوية في سوريا. فقد اشتهر بحنكته في البيع، ما مكّنه من السيطرة على سوق الأدوية بشكل لافت. يصفه البعض بالمهيمن والمحتكر، ويرجعون سبب نفوذه مهنياً إلى قربه من «نظام الأسد». لكنه يرد على ذلك، ويضحك معاتباً باللهجة السورية: «طار الشغل وراح التعب ضيعان، شو نفعني النظام؟».

عام 2013 اندلعت الحرب وهدمت مصانع أبي خالد في مدينة حمص بالكامل، وتعرض كل ما سلم من القصف داخل هذه المصانع للسرقة والنهب. بعدها، ضاقت به سبل الحياة، ووجد أن العيش بلا عمل والبدء من جديد في ظل ظروف قاهرة صعب جداً، وخصوصاً أن الميليشيات والمسلحين- على حد قوله - يريدون الإنتقام من كل من لا ينتمي إليهم، ويشاركهم أفكارهم وميولهم السياسية.

منزل فخم... وقلق

اتخذ أبو خالد قراره بالرحيل من سوريا. جاء إلى لبنان بسبب خوفه على حياة أبنائه وإصراره على ترحيلهم إلى أوروبا. أراد أن يرسم مستقبلاً جديداً لعائلته بعيداً عن مشاكل الحرب وتجاربها الصعبة. دخل إلى بيروت بطريقة شرعية، واشترى منزلاً فخماً في منطقة عين المريسة المطلّة على البحر بمبلغ يفوق المليون دولار أميركي لم يحمل أياً من ممتلكاته أو أثاث منزله معه من سوريا، ولم يدخل البلاد بصفة لاجئ إنما بصفته رجل أعمال سورياً في رصيده ملايين الدولارات الأميركية التي تمنحه الإقامة بسهولة فهو قانوناً يُعتبر من الفئة الأولى. حتى أنه يسخر قائلاً «بإمكاني شراء الجنسية اللبنانية إذا أردت وبسهولة».

وعلى رغم ظروف انتقاله السهلة إلى لبنان، وتمكنه من توفير منزل فخم لأفراد عائلته، لكن ذلك لم يحل دون معاناته. وهنا يقول بحسرة: «المال ليس سوى وسيلة تؤمّن المسكن وتسدّ حاجات العائلة»، مؤكداً أنه يفتقد الأمان، ويرافقه القلق كظله خصوصاً عند سفر إبنه البكر إلى أوروبا.

عاش الإبن أيضاً تجربة الهجرة إلى أوروبا هرباً من الحرب الدامية. ويوضح الوالد أن أحد الأصدقاء نصحه بأن يرسل ابنه إلى السويد عن طريق مكتب سفر، أي على متن باخرة سياحية إلى اليونان مقابل مبلغ قدره 5500 دولار أميركي، باعتبار أن السفر على متن قارب تجذيف أو مطاطي سيكون خطراً على حياة فلذة كبده، وهو لم يعد يهتم بجمع المال، بل يتركز اهتمامه على حماية أولاده من الضياع والخراب. وعن ذلك يقول: «عشت ساعات وأياماً من الخوف، ولم أنم حتى وصل إبني إلى اليونان، ومن هناك تسلمه أحد الأصدقاء وهرّبه إلى السويد».

مساواة أمام الحرب

يرى أبو خالد أن الحرب لا تميز بين فقير أو غني، بل إنها تساوي بين الطرفين لناحية المشاعر والقلق والخوف من المجهول، والشعور بالقلق الدائم. ويؤكد أن الثروة لا نفع لها إذا فقد الإنسان عزيزاً على القلب. ويكرّر جملته الشهيرة: «المال بيجي وبروح بس الموت غدّار».

تعيش عائلة أبي خالد بترف. طلبات «ست البيت» تلبّى دائماً، وتجهّز مائدة الطعام بأطيب المأكولات. تقصد بناته مراكز التسوق ويشترين أجمل الألبسة والعلامات التجارية المعروفة تتباهين بها أمام صديقاتهن الوافدات من حلب عند خروجهن لاحتساء القهوة أو الشاي.

إبنته شام لا تأبه للحرب، وتقول إنها سئمت من «الكذب والنفاق» الذي بات يسيطر على حياة السوريين في بلادها. كما أنها لا تأبه للسياسة، وتريد العيش بسلام في بلد أجنبي، وتنتظر قبول طلبها الجامعي لتغادر لبنان.

شام صبية في مطلع العشرينيات، تحتار كيف تمضي وقتها في لبنان. تخرج في الصباح برفقة شقيقتها ووالدتها لممارسة رياضة المشي على كورنيش المنارة، ومن ثم تتناول فطوراً صحياً للحفاظ على رشاقتها، وتمضي ما تبقى من وقت على الإنترنت وفي محادثة الأصدقاء.

تتجنب شام الحديث عن الوضع في بلادها، فوالدها حذّرها من التورط في مشاكل هو بغنى عنها، وخصوصاً أن «الكره تجاه السوري بشكل عام وتجاه اللاجئ بشكل خاص، تزايد كثيراً بسبب الحرب وما نجم عنها من ضغوط اجتماعية واقتصادية» في لبنان. وتبرّر موقفها هذا قائلة: «عند المصائب تجد نفسك وحيداً فالطبيعة البشرية تحب نفسها قبل أي أحد آخر. كل ما أتمناه هو بقاء عائلتي إلى جانبي، وعدم اختبار شعور الحاجة ومد اليد للغريب كما يفعل أبناء بلدي الذين ينتظرون الرأفة والشفقة من المجتمع والعالم الخارجي فتنتهك حقوقهم وتمسح كرامتهم بالأرض».

وهي تعترف بأن «المال، وللأسف، يجلب الإحترام، وإذا فُقد فقدت كرامتك معه».

لم تعاين شام بعينيها ما سمعته حول تناثر الجثث في الشوارع والقتل والإغتصاب، وترجع السبب إلى «مكان إقامتها في العاصمة دمشق حيث الحياة طبيعية، ويمارس السوري عمله ونشاطاته اليومية بشكل عادي، فعساكر النظام يسيطرون على الوضع ومتأهبون لأي اعتداء».

في المقابل، تنتقد حنين، شقيقة شام، حياة البذخ الشديدة التي تعيشها بعض صديقات شقيقتها السوريات في لبنان. وتقول إن «عدداً كبيراً لا يأبه للواقع الإجتماعي البائس، ولا يتأثر بالقضايا الإنسانية التي يعاني منها اللاجئ السوري، بل ينصب الإهتمام على الموضة وآخر صيحاتها، والتهافت على مراكز التسوق لشراء القطعة مهما وصل سعرها، وهو أحياناً يتخطى مئات الدولارات».

وبخلاف شام، تعمل حنين مع والدها الذي دخل مجال البناء والإعمار شريكاً مع أحد أصدقائه في لبنان. تفضل تمضية وقتها خلف مكتب لإدارة شؤون عمل والدها، بدل الجلوس في المقاهي والإستماع إلى ما وصفته بـ«تفاهات» النسوة وأخبارهن «السطحية».

تحاول حنين قدر المستطاع مساعدة السوريين الذين يعملون في ورش البناء لدى والدها. تقول: «أفرح من قلبي عندما أرى السوري يعمل ويجتهد لتأمين اللقمة لأولاده، ونساعده بدون كلل أو ملل. أتمنى أن يغيّر العالم نظرته تجاه السوري فهو ليس بسارق أو محتال أو مغتصب. نريد العيش بأمان فقط».

من تجارة الذهب إلى القطنيات

تختلف تجربة أبي قصي عن تجربة أبي خالد. فهو خسر كل ما يملكه من مال جمعه في تجارة الذهب بعدما وثق بأحد الأشخاص وأدخله شريكاً معه في المحل في مدينة حمص حيث يعمل. مضى شهران حتى اكتشف أن صديقه الذي وثق به خانه واتفق مع مجموعة من الأشخاص الذين ينتمون، على حد قوله، إلى إحدى الميليشيات في سوريا، على نصب كمين له، فسحبوه إلى مزرعة مهجورة، وألزموه التوقيع على أوراق تنازل، وهدّدوه بإنهاء حياة أولاده إذا لُمح وجهه في المنطقة من جديد.

لم يفكّر أبو قصي حينها بالمال. طلب من الله أن ينجيه من الموت ولتذهب الأموال بلا عودة. باع منزله الفخم الواقع في منطقة اللاذقية لأحد معارفه بسعر زهيد، وجاء إلى لبنان حيث استأجر شقة في منطقة الحمرا بمبلغ وصل إلى 1500 دولار أميركي في الشهر، ومكث فيها لمدة ستة أشهر قبل أن يغادر إلى تركيا، حيث اشترى منزلاً بقيمة 80 ألف دولار أميركي، وفتح محلاً مخصصاً لبيع الألبسة والقطنيات. يقول: «النظرة الدونية تطاول السوري الغني مثل الفقير، والجميع عانى من الحرب وقساوتها»، مضيفاً «على الصعيد الشخصي، لم أعد أثق بأحد، ولا أساعد إلا الأشخاص الذين أعرف أنهم بحاجة إلى المساعدة». وعن انعكاس المستوى الإقتصادي والفوارق الطبقية يقول: «عندما يصفوننا بـ«أنتم» أي الأغنياء، أضحك وأسأل: ما ميّزنا عنكم أننا نأكل من دون انتظار أن يطعمنا أحد، ولكن ما نفع لقمة تنزل كالسكين في قلوبنا بسبب ما نعانيه من أحداث وعدم استقرار».

ويضيف أبو قصيّ: «الحرب قضت على أحلام الجميع. البيوت تحولت إلى حطام، وشرّدنا من أرضنا تحت القصف من أجل إنقاذ أرواحنا. المال قد يؤمّن لنا قسماً من الأمان لكنه لن يمنحنا راحة البال».

«أثرياء الحرب»

في المقابل، يتحدث رائد (اسم مستعار) المقيم في لبنان وهو من الطبقة المتوسطة، عن طبقة جديدة باتت تعرف بـ«أثرياء الحرب» في سوريا، وهم الذين يعيشون على مصائب الآخرين «ولا ضمير لديهم» على حد تعبيره.

ويقول: «هذا المصطلح ينطبق على كل المستفيدين اقتصادياً من الحروب، والذين يستغلون حاجة الناس إلى سلع أساسية، فيبادرون الى احتكارها وبيعها بأغلى الأسعار»، لافتاً إلى استفادة كثيرين أيضاً من «انتعاش تجارة السوق السوداء المليئة بالمسروقات والأسلحة على اختلافها».

ويضيف: «أكثر ما يزعجني هو جاري الذي تحوّل بين ليلة وضحاها إلى صاحب أملاك وعقارات اشتراها بأسعار خيالية. يقول البعض إنه جنى أمواله ممّا يسمّى بسوق «التعفيش»، وهو سوق تباع فيه المفروشات المسروقة من بيوت الناس والمأخوذة بالقوة تحت التهديد بالقتل ممّا يعرف بالشبيحة». وينهي حديثه مستغرباً: «كيف بإمكان شخص أن يعيش على حساب الآخرين ويجرّدهم من كرامتهم، فليساعدهم على الأقل». يشعر رائد بالأسى على كل شخص يملك المال ليحتفظ به ويتفرج عليه من دون أن يهتم بمساعدة غيره من المحتاجين والذين يصرخون مطالبين برغيف خبز يسد جوع أطفالهم.

* صحافية لبنانية

موارد

«نفايات قوم عند قوم موارد»

سعيد البطل

أعوام مرّت على الحصار الذي تفرضه القوات النظامية السورية على منطقة الغوطة المتمردة في ريف دمشق جعلت الأمور فيها شديدة التعقيد وولّدت علامات استفهام لا تنتهي في رؤوس الجميع هناك، دون أن تلوح في الأفق بوادر إجابات حاسمة.. هذه التساؤلات ليست حول طبيعة الخصم الذي يحاصر المنطقة، ولا على شكل العلاقة معه في مستقبل أيام سوريا، ولا حول قسوة الغارات التي يشعر السكان أنها متواصلة منذ بدء التاريخ فحسب، بل أسئلة حول كيفية مواصلة الحياة في ظروف لم يكن في بال أحد أن يعيش فيها في هذا البلد.

في أواخر الصيف، عادة ما يبادر الناس في غوطة دمشق إلى الطبيعة والمساحات المفتوحة، باحثين عن حيّز للتنفّس وسط حقول القمح الذهبية.. هناك أخبرني أبو راتب عن قلقه الجديد، فيما كان يشرب قهوة تحضّر من الشعير لا من البنّ، ابتكرها متجر للقهوة في مدينة دوما المحاصرة بعدما وصل ثمن أوقية البن الواحدة إلى أكثر من ألف ليرة.

لا أعرف حقيقة مهنة أبو راتب الأصلية، التقيته لأول مرة بُعيد إخراج فصائل المعارضة قوات النظام من دوما، إذ كان يومذاك مسؤولاً عن إفراغ محطات الوقود في الغوطة بالتعاون مع المجلس المحلي، ونقلها إلى أماكن آمنة خوفاً من قصفها.

ثم بعد ذلك، جمعتنا الصدفة بين حقول القمح، وإذا به يعرج في مشيه، وهو الآن مشرف على قطعة أرض كبيرة نسبياً، في منطقة الشيفونية، يزرعها قمحاً، ولعلّه تدرّج في عدد من المهن قبل أن يصل إلى هذا.

حين أشرق عصر تكرير البلاستيك حوّل أبو راتب جزءًا من الأرض، بالاتفاق مع أصحابها الذين دخلوا شركاء، إلى معمل لتكرير البلاستيك.

وإذا كان اسم أول من قام بهذه العملية الكيمائية يظل غامضاً، فالبعض يعيد جذور الاكتشاف إلى غزة والفلسطينيين، إلا أن أبو راتب كان أول سكان الغوطة الذين استفادوا من هذه العملية لإنتاج الغاز وملء اسطوانات تعمل خمس ساعات وثمنها ألف ليرة، فيما ثمن أسطوانة الغاز «النظامية» يصل إلى أرقام فلكية تجاوز الأربعين ألف ليرة.. إن وجدت.

المعمل الذي بدأ ببرميلين بات الآن يضم فرّامة بلاستيك كبيرة، وستة براميل تعمل بالتناوب على مدار الساعة، وثمانية عمال، وسيارة بيك-آب.

يُدخل المعمل البلاستيك من مختلف الأحجام، ثم يخرج بالترتيب غازاً وبنزيناً وكازاً ومازوتاً وشحماً. ويخلط الشحم مع براد الخشب من مناشر الحطب وينشف على شكل أصابع ويباع باسم «الحطب الذكي» إذ أنه سريع الاشتعال، ويستمر طويلاً، ولا يترك الكثير من هباب الفحم.

ولأن أبا راتب قليلاً ما يحبّ الحديث في الأرقام، أخبرني عن قلقه مختصراً إياه بمعادلة ملخّصها أن أمامه خيارين أسهلهما صعب! فعليه إما تقليص وقت استفادته من التيار الكهربائي، أو تقليص استخدامه للمياه بشكل كبير بحيث لا يحتاج إلى ملء خزانه سوى مرة واحدة في الأسبوع. وكيف يفعل ذلك وهو يحتاج إلى كميات كبيرة من المياه، سواء للاستحمام أو الغسيل، أو لغسل حفاضات القماش لابنه محمود حديث الولادة.

وما زاد الطين بلّة أن الخزان الأكبر، ضمن خزاناته الثلاثة المتصلة، تصدع البارحة إثر رشقة الصواريخ التي أودت بحياة أربعة مواطنين في الجوار.

كان تفكير أبي راتب يقوده إلى تركيب خزانات بلاستيكية تضاعف قدرته على التخزين دون أن يضطر لملء المياه بوتيرة عالية.

قلت له: «لا، ليس بهذه السهولة».

فالمشكلة الحقيقية أن البلاستيك في تضاءل مستمر، لكنني لا أقول هذا أمام الناس، كي لا أثير ذعرهم. في حقيقة الأمر البلاستيك شارف على الانتهاء في الغوطة الشرقية، ومستودعات أكياس النايلون في مدينة عربين باعت آخر دفعة كبيرة قبل أسبوع، وأغلقت على الباقي احتياطاً، أو في انتظار غلاء ثمنه.

«تعرف»؟، بادرني أبو راتب وقد رشف الرشفة الأولى من ذاك المشروب الذي يسميه قهوة، «البارحة وأنا أنتظر دوري، لقطع اشتراك الموتور الخاص بتعبئة المياه، شاهدت الجنة في التلفاز».

وما هي هذه الجنّة يا أبا راتب؟

«الجنة أكوام مكوّمة من أكياس القمامة، جبالاً وجبالاً، وفي كل مكان، في كلّ شارع على كلّ زاوية، إنها بيروت يا صديقي، الجميع يرمي القمامة ولا أحد يجمعها، بات الناس يسيرون في الشوارع واضعين كمامات، والحكومة محتارة ماذا تفعل، أتصدق؟ بلد بأسره ينظر إلى الموضوع بارتباك، بينما عمّك أبو راتب يتابع التلفاز مثل علي بابا وهو يدخل المغارة».

وتابع أبو راتب وصف المشهد الذي اصابه بالذهول «استقبل المذيع من يبدو أنه أحد ذوي الشأن في مواضيع البيئة والدفاع عنها، ليخبرنا أن المشكلة ليست في المخلفات العضوية التي لا تشكل سوى ٣٠٪ من القمامة، فهي قابلة للتحلل، المصيبة تكمن كما قال في البلاستيك… تخيل معي في البلاستيييييك، أكثر من ٥٠٪ من أكوام النفايات هي بلاستيك، ثم أعادوا عرض اللقطات فكاد قلبي يتوقف، شعرت كما لو أنني أشاهد أحدهم وهو يرمي الخبز ثم يدوسه ويدوسه ثم يرمي المزيد من الخبز ثم يدوسه ويدوسه، كدت أبكي، أنا المسود من رأسي حتى أصابع قدمي من شحوار احتراق الدواليب، لو سلموني هذا البلد لأسبوع لأصلحت الأمور وخرجت غنياً في آن واحد».

ورشف من فنجاة قهوة شعيره وأضاف متحسّراً على حاله وقال «أستطيع حل مشكلات دول، وأزمتي لا أرى لها مخرجاً، يا للسخف»..

كان أبو راتب يندب حظّه، وأنا أرتشف معه ما يسمّيه قهوة وأكاد أموت من الضحك، وسط حقول القمح الذهبية تحت هدير الطائرات الحربية وأصوات المدافع البعيدة، وأرى فيه أبا راتب الذي تعودّت أن يقتلني من الضحك كلّ مرّة، مذ كنت أفتح له باب البيت كلما زارني وأعرفه حتى قبل أن أفتح الباب من رائحة النفط المكرّر من البلاستيك التي تفوح منه.

وكنت أناديه من وراء الباب: «أبو راتب طلعت ريحتك»، فيبدأ نوبة إضحاكي بقوله: «هاي ريحة المصاري يا ابني.. افتح الباب.. ما أدراك أنت، والله لا أمر أمام فتاة إلا التفتت إلي».

ويهمّ بالدخول قائلاً: «جايب قهوتي معي، كي لا أثقل عليك» ويبدأ بإخباري كيف حلّ هذه المشكلة وتلك المعضلة، وكلّها مسائل حياتيّة يوميّة أكثر تعقيداً من التدخل الروسي، أو الاتفاق النووي، أو الموقف التركي، وهو كغيره في الداخل المحاصر إذ ينكر الوقائع السياسية والاستراتيجية ولا يدرجها في أولوياته. لا يقوم بذلك عن عبث، ولا عن غباء أو جهل، بل كان يقول لي مشيراً إلى سقف بيتي: «كلّ محاضراتك عن مدى إشكالية التوقيع الإيراني على الملف النووي لن يبدل لك هذا المصباح الكهربائي المعطّل».

© تيم السيوفي

سفر

رحلة انتظار في المحطة

ربيع الأمين*

يقف سائق السرفيس الذي أقلني إلى أمام المبنى-الجسر، ويقول لي: «من هنا». أنظر إلى هناك فأرى في البعيد عدداً من سيارات الأجرة البيضاء مركونة في صفّين إلى جانب باص يزيّن جانبه إعلان ملوّن لماركة بن برازيلي لم أسمع بها من قبل.

أنزل من السيارة، وأجتاز الحاجز الإسمنتي الذي يفصلني عمّا يُفترض أنه موقفٌ ومحطة لنقل الركاب، وأسير صوب المستوعب-المكتب الوحيد المضاء لأسأل عن الرحلات إلى سوريا. أمام المستوعب يافطة صفراء كُتب عليها بالأزرق: طرطوس-بانياس-جبلة-اللاذقية، ومن فوقها الأردن.

أقف أمام الزجاج وأنتظر الموظف كي ينهي مكالمة على هاتفه الخليوي. تطول المكالمة ويطول انتظاري، فأتأمل الإعلان الملصق على الباص والسيارة-الجائزة المعروضة للربح فوق ركوة قهوة مرسومة على عجل أو هكذا افترضتها. أقف وأتخيّل مذاق القهوة وطعمها وروائحها. أنا الذي توقفت عن شربها منذ تركت التدخين، أي قبل عشر سنين تقريباً من الآن.

أستدير مجدداً إلى الموظف الذي ما زال منشغلاً بالحديث على هاتفه، لعلّه يعلم هو أيضاً أن لا عجلة في طلبي، فالموقف أمامنا نحن الاثنين خالٍ، ولا يوجد أي علامات لرحلة قد تنطلق قبل ساعات من الآن، فلا ناس ولا ركاب ولا حتى سائقو التاكسيات أمام سياراتهم، وهم الذين لطالما ركضوا خلف كل مشتبه بسفره ولم يفلتوه إلا اذا ضمنوه راكباً على أحد مقاعدهم.

ننظر أنا والموظف إلى بعضنا البعض فيما هو يكمل مكالمته التي بدا لي أنها خاصة، فمنها ما يتعلق بأولاده، ومنها ما يتعلق بأجرة حكيم أبيه، ومنها ما خرج عن كل هذا ليتمحور حول جبنة حلوم لم تصل إلى «أبو وحيد». وكمن يريد أن يشركني بهمومه، يومىء إلي بعينيه ناحية باب المستوعب. أنظر إلى الباب وأدخل من دون تردد كمن اعتاد زيارة المكتب، وبإيماءة ثانية منه أراني جالساً على كرسي وُضعت عليه وسادة تآكلَت مع الوقت وأخذت شكل الكرسي وشكل من تعاقب في الجلوس عليها.

يستدير الموظف ناحيتي وينظر إلي ويستأذنني بحركة من عينيه قائلاً «مكالمة خارجية»، فأهرب من الإجابة ومن عينيه، وأنظر إلى كومة الجرائد المكدّسة تحت طاولة، والتي لولا سائل التنظيف الأزرق الموضوع عليها لما كنت فهمت أنها لمسح الزجاج الذي فُتحت فيه دائرة غير سوية في الأسفل لتسهيل التواصل بين الموظف ومن هم في الخارج، ولتمرير المال والبطاقات.

على الزجاج الذي يعلوه من الداخل والذي يعكس اسم الشركة المسيّرة للرحلات، تطير نحلة بتوتر، وتصطدم به، ثم تحطّ على كوب من الشاي موضوع أمام الموظف.

في الخارج رجلان يحمل كل منهما على كتفه حقيبة سفر يمرّان من أمامنا. أحاول أن أعرف وجهتهما إلاّ أن عينيّ تنشغلان بحائط مسيّج من الناحية الثانية للطريق، حائط يعلو بين سفر ركاب المحطة الغائبين وبحر بمرفأ تجاري أم هكذا أفترضه من حيث أجلس

© ربيع الأمين

على الكرسي هو باب لسفر البضائع دون سواها. على الحائط رسم بسيط لدراجتين هما أيضاً من دون راكبيهما كما لو أن المكان كله بحيطانه ورسومه فقد ناسه.

تترك النحلة فنجان الشاي، وتعود لتصطدم بالزجاج أمامي، فأقف وأتجه نحو الباب، ثم أخرج تاركاً الموظف منشغلاً بمحدثه. لا أثر للرجلين في الخارج وكأنهما اختفيا، لعلهما صعدا إلى الحافلة المتوقفة والتي تحمل إعلاناً للبن البرازيلي. أتأمل نوافذ الباص التي تغطيها البرادي الأرجوانية، وأنتبه إلى وجود رجل وامرأة يجلسان في مقدمة الباص بانتظار انطلاق الرحلة. أجتازُ الباص نحو سيارات الأجرة فأرى سائق إحداهنّ يوضّب أكياساً داخل صندوق سيارته الكبير فيما زميله يناوله إياها. ينظر إليّ السائق ويسألني: «طرطوس؟» أهز برأسي، يسألني زميله «الشام؟» فأجيبه: «كلا». يكملان توضيب الأكياس وأكمل أنا سيري باتجاه باحة هي فسحة انتظار زُرعت من حولها مقاعد من الباطون على شكل نصف دائرة، منها ما هو رمادي، ومنها ما هو ملون بألوان باهتة، ومنها ما هو مغطّى بصفائح من علب الكرتون عمل أحدهم على فتحها ومدّها فوق الباطون لتتحول إلى فرشة للنوم وغطاء يقي من ينام تحتها من الهواء الرطب الآتي من البحر، والذي يبرد ليلاً في مثل هذا الوقت من السنة.

بضعة أشخاص لا يتعدى عددهم العشرة يجلسون أو يتمشون في الفسحة، أغلبهم سائقون أو عاملون في الموقف، يدور حولهم بائع قهوة متجول عارضاً عليهم ما يشربونه، يحفظ طلبهم ووجوههم ليختفي قليلاً خلف لوحة إعلانات من دون إعلان تضيء بابوراً للغاز أشعله ليسخّن المياه وليعدّ القهوة عليه، يصبّها في أكواب وعاد بها ساخنة ليوزّعها سريعاً على طالبيها دون أن يخطىء بصاحبها ويقبضُ ألف ليرة ثمن كوب بلاستيكي صغير من القهوة، ومثلها لكوب بلاستيكي كبير من الشاي، وضعفهما لكوب كرتوني كبير من «النسكافيه».

يقترب مني بائع القهوة ويسألني عمّا أشرب، وقبل أن أجيبه يتركني وينتقل إلى رجل جلس بقربي ويسأله، وقبل أن يعود إليّ أغادر الباحة عائداً إلى المستوعب-المكتب، ومن بعيد ألمح الموظف وقد أنهى مكالمته. أتجه صوبه، وحين أصل أقف خلف الزجاج، أنظر إليه، أتردد قليلاً، ينظر بدوره إليّ كمن نسي ماذا يريد، أتمتم، أتلعثم، أعتذر وأبتعد على مهل. أجتاز الطريق التي تفصل المحطة عن حائط المرفأ، أقف وأنظر مرة أخيرة إلى المحطة وإلى رسميّ الدراجات، تتوقف أمامي سيارة أجرة، أقول لسائقها «الحمرا؟»، أصعد إلى جانبه.

وفيما كانت السيارة تبتعد عن المحطة، كان البحر ينكشف تدريجياً لنا، فرحت أنظر إليه وأفكر بإعلان البن الملصق على الباص، وبالبائع الذي يقدم قهوة لا رائحة لها، أو لعلني لم أعد أميّز طعمها بعد طول انقطاع. أغمض عينيّ وأتخيل كيف سيكون طعم القهوة وأنا أقود السيارة التي في الاعلان... في شوارع البرازيل.

* كاتب وسينمائي لبناني

ذاكرة

ذاكرتان في مدينة واحدة

علي جازو*

تلعب الذاكرة دوراً محورياً في تشكيل تصوُّرنا عن الآخرين، وفي مدى استعدادنا لتقبّلهم أو رفضهم. نحن أبناء ذاكرتنا بالقدر الذي نحن فيه مسؤولون عن أفعالنا. ولعل أفعالنا هي بطريقة ما ناتجة من ذاكرتنا بما فيها من ندوب ولحظات مشرقة. ينطبق هذه الأمر على الأفراد كما ينطبق على الجماعات والشعوب.

***

قدِمتُ إلى بيروت منذ سنتين تقريباً. عندما انعدمت خيارات الحدّ الأدنى من الحياة في بلدي سوريا، ملاذي الوحيد والممكن هو بيروت.

قبل مجيئي بسنوات، كنتُ أكتب في صحف «السفير» و«الحياة» و«المستقبل»، وكلُّها تصدر في بيروت. ذاكرتي السابقة عن المدينة هي أوراق الصحافة وكلمات الأدب. أما الآن فقد أُضيفت إلى هذه الذاكرة الأدبية، وهي نسبية وفقيرة ربما، وتبقى داخل المخيلة، ذاكرة أخرى تتركز في وقائع العيش اليومي، وتتغذّى من شؤون وأحوال جديدة عليّ. بالنسبة إليّ أصبح مهماً موضوع الزواج المدني في لبنان، وغلاء إيجارات البيوت، ومشكلة المياه والكهرباء، إضافة إلى معالجة أزمة النفايات، وغيرها الكثير من الشؤون العامة والقضايا اللبنانية الملّحة.

ربما تختلف تجربة الشاعر عن تجربة شخص عادي إزاء أزمة اللجوء السوري الصعبة، غير أنَّ العيش في مدينة صغيرة وحيوية ومتوترة، ومشاركة أصدقاء جدد تجاربهم وأحلامهم، يبقيان تجربة صعبة ومغرية في آن واحد.

***

خلال سنوات الوجود العسكري السوري في لبنان (1975-1990)، لم يتعرف اللبنانيون إلى عموم السوريين بالشكل الكافي والصحيح. الفئة الغالبة من السوريين كانت محتجبة خلف قناع النظام الأمني السوري، ذاك أن سوريا كانت دولة مغلقة على الداخل، مفتوحة على الخارج. لقد كانت هناك فئتان سوريتان متناقضتان أشدَّ التناقض تعيشان على الأرض اللبنانية، من دون غيرهما. كان هنالك عالمان فقط، الأول هو عالم الجنود السوريين الذين كانوا تابعين لنظام أمني قاسٍ ومخيف، والثاني هو عالم فقراء سوريا وخصوصاً العمال والمياومين الهاربين من الفقر في بلدهم، والباحثين عن فرصة عمل في لبنان. هذه هي تقريباً الذاكرة الوحيدة التي خلَّفتها سنوات الوجود السوري الطويلة في لبنان: ذاكرة العسكر القائمة بما تعنيه من تعسّف وتجاوز للقانون، وعدم احترام للحريات، ومعها ذاكرة عمال سوريين كان وجودهم في لبنان أساساً بسبب النظام العسكري والشمولي في بلدهم، والذي سيطر بنحو سلبي على مظاهر الحياة كافة، وخصوصاً الاقتصاد في ظل شحّ فرص العمل؛ مما حرمهم من فرصة عيش لائقة في بلدهم.

كان التصدير السوري، إذا جاز التعبير، مزدوجاً ومتناقضاً. فمن جهة ثمة صورة الجندي السوري، ومن جهة أخرى ثمة مظهر العامل الفقير. لقد جرى اختصار سوريا والسوريين في هاتين الفئتين فقط، وعلى هذا النحو تشكلت ذاكرة اللبنانيين عن السوريين قبل ربيع عام 2011.

أما الآن فقد وجد اللبنانيون نمطاً آخر من السوريين الذين جاؤوا إلى لبنان بدفعات كبيرة هرباً من الحرب والخوف والدمار. مع مرور الوقت استقر الكثير منهم في مختلف المدن والبلدات اللبنانية. تغير نمط التعامل السوري واللبناني، فالأول لم يأت كي يفرض سيطرته على أحد، بل جاء طلباً للحماية والأمن، والثاني وجد السوري المختلف عن الصورة القديمة التي كانت في ذهنه قبل انطلاق الثورة السورية.

***

السوريون الجدد الذين باتوا يقيمون في لبنان إلى أجل غير معلوم، ومعظمهم من الفئات الشابة، يقومون بتنقية الذاكرة المشتركة للشعبين السوري واللبناني. نمط الحياة الجديد، وضرورات العيش المشترك، على الرغم من صعوبة التنافس على الموارد العامة، تجعل كفّة التصالح والانسجام هي الراجحة في نمط العلاقة التي كانت مختلة خلال سنوات الوجود السوري في لبنان. السوريون الجدد مدنيون وليسوا من خلفية عسكرية، بينهم طلاب وكتّاب وفنانون، وبينهم كذلك عمال وتجار وأغنياء. يمكن القول إن الفئة الوسطى السورية، أو ما تبقى منها، هي التي استطاعت الصمود والبقاء في لبنان، سواء في مجال فرص إيجاد العمل، أم على صعيد صحة العلاقات اليومية الناشئة ما بين السوريين واللبنانيين.

يمكننا فهم رفض بعض اللبنانيين للنزوح السوري الكثيف خلال مدة قصيرة، اعتماداً على ذاكرتهم السابقة عن السوريين، وهي ذاكرة مشحونة بالرفض والإحساس بالمهانة بسبب سلوكيات النظام السوري في لبنان، فعدا شحّ الموارد وضغوط الحالة الاقتصادية، يلعب العامل النفسي دوراً مهماً في هذه الحالة.

على صعيد آخر، وهو الغالب، فقد اتضحت صورة أخرى للسوري النازح. إن سبب وجود السوري في لبنان الآن هو ذاته سبب رفض اللبنانيين للوجود السوري العسكري السابق. إنها لحظة فريدة بحق، حيث أنَّ الهاربين الآن من السجن السوري الكبير هم ذاتهم يشبهون في قرارة أنفسهم اللبنانيين الذين ذهب كتّاب وصحافيون منهم ضحايا للنظام السوري. لقد التقى الحق الهارب من الجحيم (أي السوريين) مع الصورة النمطية السابقة عنهم، وهم الآن في طور جديد من تقديم الصورة الحقيقية عن أنفسهم، وليس هذا بالأمر السهل.

***

مع ذلك، وبمرور الوقت، ينشأ نوع من الاعتياد على ما كنا نظنه في البداية غريباً ومؤقتاً، أو غير مقبول ولا يمكن تحمّل شروطه. أحياناً يحمل الزمن بذرة الفكرة الصحيحة. ومرة أخرى تعود الذاكرة كي تقوم بفعلها الثمين والحيوي والمثمر، لكن هذه المرة عبر النظر إلى خلف الصورة السوداء، إلى ذاكرة يكون عمادها المستقبل الذي يكفل للجميع فرص الحياة الكريمة.

الكفاح السوري اليومي في لبنان، ومثله مثل كفاح النشطاء اللبنانيين، يقدم فرصة جديدة لعالم بلا خوف وبلا ضغائن.

* كاتب وشاعر سوري

مسرح

المسرح السوري في لبنان

عبيدو باشا*

(إهداء: إلى داريو، وحده، درة الشرقين)

حصَّل المسرح السوري، الكثير، بالسنوات الماضية. لا ثرثرة، إذ أذكر أسماء. سعد الله ونوس وفواز الساجر ومانويل جيجي ونائلة الأطرش وغسان مسعود وأيمن زيدان وأسعد فضة ودريد لحام ونهاد قلعي ومحمد الماغوط. رجع، هؤلاء، بأعمالهم، إلى النظريات المعاصرة. أحسنوا ولم يحسنوا. لأن عدم التفاوت، فن من فنون الميت. فن من فنون الأموات.

فكرة العربي واحدة بالمسرح. أن الخطاب، فن عضوي. صورة قتيل يحلم بالحياة. منذ منتصف القرن العشرين، اشتعلت لحظات باهرة في المسرح السوري، ما عاد أحد يتذكرها، من جمهوري الحرب في سوريا. أبواب رئيسية على ما لا يحسب على فن الكلام. «أهل الكهف» لفواز الساجر، «سهرة مع أبي خليل القباني» و«إنسوا هيروسترات». عشرات العناوين الملتهبة بقلق الحضارات. هذا على ضفة. تعاظمت المحاولات على الضفة الأخرى، بين استعارة أو قراءة خلاصات مبهرة على دروب العالم. تجربة مسرح الشوك، خلاصة من خلاصات المسرح السوري. إدراك عالم المسرح، واحدة من خلاصات المسرح السوري. حيث جرت محاولات حثيثة، لمأسسة عالم المسرح، إذ رُفعت الأبنية والعمارات، بعيداً من الذبذبات.

ارتفع المسرح على قراءات السلطة للواقع والأرض. البون بين الإثنين عريض. ارتفعت طبقات المسارح على أرض الواقع، كما قامت طبقات السرد في المسرح. ما عاد أحدٌ يتذكر، لأن العلاقة بالمحيط، لم تعد تحصر علاقتها بالمسرح بالنزعات الجمالية للممارسات المعاصرة، وحدها. إذ أن عجيج الحرب، طغى على كل محاولات، تحليل علاقات الماضي بالحاضر، بوصف الثاني امتداداً للأول. ذلك أن سوريا، امتلكت سِفْر المسرح، باستدراج الإستعارات واصطيادها. المسرح القومي، المسرح الجوّال، المسرح العمالي. لم يعد أحدٌ يتذكر، لأن الحرب بسنواتها الخمس، أخذت المسرحي السوري، لا إلى إبداع النثر بالمسرح. أخذته إلى نثر المسرح بالحرب. حتى انتقلت أجزاء من مكونات هذا المسرح / وجوه اختزلت «الزمن السعيد» ووجوه لا تزال في عراء اللحظات القاسية، الواقعية والعبثية / حتى انتقلت الوجوه هذه إلى بلدان وأرصفة ونبرات أخرى، حيث بدا أنها تُهيّئ لحضور الصور الأخرى للمسرح السوري، على دروب لم تقصر ولن تقصر، كلما طالت الحرب. لا شيء يدعو للهلع/ هنا / إلاّ انهماك المواطنين، الطيبين، بتأمين يومياتهم الثقيلة في البلدان البعيدة إثر تحطم سفن أحلامهم على روح المدن الجديدة وطبقاتها المُهملة.

لا يزال المسرحيون السوريون، مذاك، يوسعون دائرة حضورهم في لبنان، بدلاً من أن يغيّروا بقواعد اللعبة تغيرات حاسمة. ذلك أن حضور المسرحي السوري / اليوم / حضور معطوف على حضوره السابق في لبنان في الحرب السورية. وسعٌ بلا إجابات عن المسائل الجوهرية، حيث تم اعتبار الفن، هذا، ظاهرة لغوية. ظاهرةٌ، لا تثير إلاّ حماسة الندماء في نبش أشلاء الأزمنة المنهوبة والأحلام المجهضة. لا شيء لافت، خارج الحقيقة هذه. ساهم لبنانيون، بحرف بعض المسرحيين السوريين، عن مفاهيم اقتسام المحسوس، بين البعد الجمالي للفن وأبعاده الأخرى. البعد الإجتماعي بالمقدم. ذلك أن الإصطفاف، جرَّ المسرح، إلى المباشرة، بعيداً من البحث عن اللغة المرئية الجمالية، الجديدة. لغة، تثري وتُغيِّر ما لدى العرب، من إدراك الفن هذا. لا شيء من الغلو، إذ يؤكد الكثيرون، أن حضور التجربة المسرحية السورية، في لبنان، بالسنوات الأربع أو الخمس الأخيرة، حضور استخدام المسرح بالصراع الدائر في سوريا، بترجمة لغة الجمهور على الخشبة، لا لغة الفن ولا الفنان. هكذا، صار المسرح، مكاناً من أمكنة عامة. أمكنة ثابتة، لا تحرّر ذواتها من فخ الجماهيرية. جمهور من أهالي الحي. لا جمهور مختلط من أهالي الحي والأحياء الأخرى. نزعات عيش، أكثر مما هي ميزٌ بالعيش. مسرحية «ما عم اتذكر» لوائل علي، حبست الإبداع في ظواهر الحركة الخارجية، كجزء من رحلة تُحضَّر، لرواية سيرة رجل ناهض السلطة، على بكرات الأعوام الماضية. معتقل سابق، يروي تجربة السجن والإعتقال، بعيداً من خلق ما يقتسمه المسرحي مع الجمهور بالعادة. لأن جمهور العرض جاهز. مسرحية مُعارض. جمهور المسرحية، جمهور مُعارِض. أدرك الكل، إذ وطئوا صالة مسرح «دوار الشمس»، أن ما سمّاه الأوروبيون المسرح، لا وجود له. لم يدركوه، لأنهم وضعوا أنفسهم في طيّات السرد، وهم في منازلهم أو في مساحات لقائهم المتوفرة الأخرى. جمهور فوق المنصة، لا في الصالة، أحاط المعتقل السابق. لم يروِ الأخير حكايته وحكاية من عاضده بتلك المرحلة، لأنه لم يلبث يجيب عن أسئلة رجل ذي ميول سياسية واضحة، يؤكدها إذ يُذكِّر الجمهور، عبر صور فوتوغرافية ومقاطع مُصوَّرة، بأحداث خاضها الرجل، اللطيف، المتبرم، قليلاً، من تحلق الناس حوله. المتبرم أكثر، من مصوغ العلاقة بينه وبين من يريد أن يزيد من ثقة الجمهور به، كلما بانت خسائره / الراوي / أكثر. لا مصوغات تأويل. لأن المسرح عَقَدَ ذاته، هنا، على احتلال السياسة الخالصة، منصة لم تجد قاموسها إلا بكتاب الحرب والموت والقتل والدمار والتشرذم. بدا الرجل، ثقيل الحضور، يبرطم أكثر مما يروي، لأن الرواية، هنا، لا تحرر. لأن الرواية، هنا، تنظم اللقاء، تنظم الكلام في فضاء، معين، في فضاء جاهز. سُرادق سياسية، نلاحظ، بوسطها وعلى عجل، المعروضات المتناثرة، لا أجزاء العرض، الموحدة بالشكل. «هايد بارك» قديم. مسرح «دوار الشمس»، أحد جسور «العروض المعارضة». جسر بلوغ العرض حجمه الجماهيري، باختلاط الجمهور بالحديث، لا أكثر. لا علاقة لذلك بالفضول. تقوم العلاقة، بين المسرح والمسرحية، على الضرورة السياسية. ضرورة، تسمح بالترابط، بين فريق العمل وإدارة المسرح. لم يحظَ العرض، الضيف، بالمغامرة. مغامرات الأصابع ومغامرات العيون. لأنه، لن لبث / مباشرة / باختلال مفهوم الهوية الوطنية، من اختلال مفهوم الهوية عند اللبناني. رسالة الأخ، تصبح رسالة الأخوين. رسالة واحدة، بخط واحد وحبر واحد وكلمات واحدة. تزداد الريبة، هنا، لا العكس، إذ تزداد الألغام بدل تفكيك الألغام السابقة. هكذا، تلصق المسرحية السورية، على الجدارية اللبنانية، بأحاديثها ذات العبارات المتوترة، المبتورة، ومشاهدها المتقطعة. هكذا تقع المسرحية السورية، في ثقافة الظل اللبنانية. طللٌ على أطلال. لا جوهر، بعيداً من الحبكات. لأن لهجات الحياة / بهجة الشغل بالمسرح من لهجات الحياة / توقفت عن الدوران، مُذ أضحت عمليات ترميم الروح البشرية، أقرب إلى عمليات التجميل السائدة.

لا شبكات قراءة التأليفات أو المسارات الفنية/الثقافية. ذلك أن القراءة، هنا، قراءات بالواقع، على أرض الواقع. كما يرى، صاحب العرض أو المسرحية الواقع. واقعٌ، ذو روابط بالسياقات الحصرية، الجاهزة، ببلاد الحرب وببلاد من يدير المسرح. مدير منهمك بتحديد الإتجاهات بدل الإستعانة بالبوصلة. لن تشترط العلاقة بين الطرفين، الإبداع. ثمة، ما لايقدم الراحة. هكذا، تواترت الأنباء، عن تهديدات، تلقتها إدارة المسرح «دوار الشمس»، تحت إصرارها على عرض «ما عم بتذكر».

واحدة من الإشارات، المعبّرة، بهذا السياق، أن صحيفة الكترونية، اقترحت عليَّ الكتابة عن عرض وائل علي. ثم، أنها عادت وطلبت أن أهتم بعرض آخر. لأن سورية معارضة / بالصحيفة / أصرت على أن تصحِّفه، بعد أن سمعت فيه / سلفاً / أذان المصلين وأناشيد المعارضين. نشرت الصحيفة المقالتين (مقالتي ومقالة الزميلة السورية) بفارق أيام. لا غرابة، إذ ربطت، علاقة حب، بين الزميلة والعرض السوري. حين ربطتني به، علاقة محفوفة بالحلو والمر.

ضخّت الزميلة موقفها السياسي، في أجواء المسرحية. مثلثٌ عظيم. موقفان متطابقان. أقام التطابق، جلبة، أخفت عناصر العرض، الفنية، النادرة. المحصلة: مسرحية منبهات ونقد لا ينبه لأنه ليس نقداً. فوضى رنانة. بينالي لا مسرحية. يقدم المسرح خدمة، هنا. لا يقدم المسرح، إلّا الطاعون. أو تكفير الآخر، بطبع ونشر لوائح طويلة من الإتهام. لم تعد المسرحية حدثاً. أضحت مناسبة. أضحى عالم النقد، باللحظة هذه، أفكاراً بدئية بعصر المنتجات الرقمية الناشطة والفاعلة. أفكاراً، لا تملك أية قوى إخضاع للمسرح، بحقوله الفكرية والثقافية والتاريخية والسياسية الحقة. المسرح جثة مسرح.

اختارت العروض المسرحية السورية، عندنا، التحصن بالفحولة السياسية. كل بشري فحلٌ سياسي في لبنان. لا مقام للمسرح إذن. لا سبر أغوار. المسرح أرض مسطحة. استنفر جزءٌ من اللبنانيين، أنفسهم، لبناء استراتيجيا حضور بعض المسرح السوري في لبنان. حضور وجودي. لا علاقة لذلك إلاّ بتربية اللبناني ذي الكيمياء الجاهزة لبناء جوق، رجعية. الكيمياء بين «البعض» و«الآخر» (لبناني وسوري أو لبناني وفرنسي سواء بسواء) متاحة لكل طالب، ما دام الطرفان على اتفاق، سابق على الإتفاق. اتفاقٌ، يستقطر كيمياء السعادة، من صور الحرب المستعرة، على حروف المدن والقرى الخربة. كل كلام على عنصرية لبنانية، كلام بلا استبصار رؤيوي. لا عنصرية. هذه إشكالية مطروحة في مقام آخر، لا في مقام المسرح.

يحرص العاملون في مسرح «دوار الشمس»، ضفة الضاد بعلاقتهم بالعروض السورية، ذات أهداف إدراك الإنتصار على الطرف الآخر، عبر المهارات والأبواب. حنان الحاج علي / زوجة المسرحي روجيه عساف / مؤسس مسرح «دوار الشمس»، مالكة موقف سياسي واضح. موقف يحصن مواقف المعارضين المسرحيين، بتقديم «دوار الشمس» للأعمال السورية، ذات المفاهيم المحاربة، لا مفاهيم التراكم النوعي. الإقتراب من العروض المعارضة، اقتراب من طبقات الصوت الخاصة. دعامة التاريخ الجديد. هذه قضية حساسة، لا يخوض بها كثيرون. كل سؤال، في هذا المجال، سِفرٌ غير مضمون النتائج. تأشيرة غير متحققة. هذا طبيعي، أمام الرغبة الواحدة، حيث تتعلق الرؤى، بالكثير من ومضات الحلم والخوف. لن يشاطر أحدٌ أحداً، ما يفكر به. ما يجهد إلى تحققه وتحقيقه. كلما سألت، يضحى من سألت، صاحب صورة معلقة على جدران المدينة. فسَّر غسان مسعود ذلك، بأن الفنان السوري، سقط في الحرب السورية، سقوطاً سريعاً. أسقطته الحرب بالضربة القاضية. لا فحص هوية للسوريين، لأن السوري، يقدم هويته على بدنه. هويته السياسية. حين سألت حنان الحاج علي، عن بعض المسرحيين، وجَّهت خطاي، إلى القائم على البرمجة، في «مسرح بابل». مسرح آخر، استضاف مسرحيات أخرى. هناك، بالمسرح القائم في شارع الحمرا، جهة مستشفى الجامعة الأميركية، يداوم محمد عصام القدور. شابٌ، هادئٌ، مهذبٌ، حذرٌ. أكد الشاب، بشعره المجَّدل، أن العروض السورية، على مسرحه، عروضٌ لا مع النظام السوري ولا ضده ولا مع المعارضة السورية ولا ضدها. هذا من شروط القول، في الأيام العصيبة. المسارح أحيازٌ. هذا صحيح. غير أن المسارح، تروم كل الأساليب، لكي تستمر، وسط الأزمة الإقتصادية. أساليب التأثر حاضرة، غير أنها محدودة. لن تتضح معالمها، كثيراً. لأن المسرحيات السورية، قليلةٌ، على المنصات اللبنانية. لن تولد الحاءُ من رحم الميم، حين نقيم مقارنة بالعدد بين المسرح السوري والمسرح اللبناني. لن يولد حرفٌ من حرف. عشرات المسرحيات اللبنانية، على الخشبات اللبنانية. بعض المسرحيات السورية. تسعفُ بعض المسرحيات اللبنانية، مسرحييها بترجمة هواجسهم. لا تسعف مسرحيات أخرى المسرحيين. لا تسعفُ المسرحيةُ السوريةُ المسرحي السوري. لأن وقت السوري، غير زمن اللبناني. لا يمتلك الزمن السوري صبر الزمن اللبناني العجيب. تطرق المسرحيات اللبنانية، الزمن بهدوء وصبر عجيبين. الكلام مع محمد قدور، أشبه بالعملية الجراحية. رافع بتأثر عن حنان الحاج علي. طقسُ ولادةِ الواحد من الآخر. ولد محمد قدور على لسان الحاج علي. وها هي حنان تولد، راشدة، على لسان محمد قدور. لم أبح لقدور بأن حنان، عقدت علاقتي به. أكد الشاب، أن حنان، مسؤولة «إتجاهات». مؤسسة سورية - لبنانية على رأس مؤسسة سورية. أفق العلاقة، هنا، أفق رمزي. نقطة تموضع رمزي ومادي بدرجة مساوية. سوف يؤدي الأمر، إلى ترخيم إيقاعي وشحن عاطفي.

لم يتأثر المسرحيون السوريون، بالتجربة اللبنانية. لا تأثيرات رحمانية، إلاّ على الصعيد التقني. ذلك أن المستوى هذا، غير منظور، كثيراً، في المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق. «معهد ذو طرق مشهودة، بتكوين الممثل والمخرج، غير أنه لا يُملِّكُ المسرحي، سحر التقنيات. الصوت والإضاءة والسينوغرافيا. اكتسبها المبدع السوري، من حضوره اللبناني». أكد قدور. تبقى العروض السورية، بلبنان، على عرش الإنجازات السورية. كل مسرحية سورية مسرحية سندريلا، لن تلبث الأيام أن تسمح لها بالزواج من الأمير، أو أن تبقى عزباء، بائرة. لاعلاقة للإختلاط، بإيغال «الواحد» «بالآخر». لا حساسيات لبنانية بالمسرحية السورية. بالعكس. يلعب اللبناني، دور محفز عمليات تحيين الرؤيا، لا تحسينها، إلاّ على المستوى التقني. مستوى مبتور بسوريا.

هناك، مؤسسات وهيئات، تقوم بتمويل العروض، ذات العلاقة المباشرة بالحرب في سوريا. «إتجاهات». «آفاق». «المورد الثقافي». لا عاطفة، بكلام قدور. ثمة تبيان. ما استقبل «بابل»، إلاّ عروض الحياد. «فوق الصفر» لأسامة حلال. قراءة في ست صور اشتهرت بالأحداث. زواج القاصرات. الإعدامات الميدانية. مزج بين الدراما والرقص المعاصر. «إذا فيك تتطلع بالكاميرا» إخراج عمر أبو سعدى، آداء إيهام الآغا. «من أجل نعم أو من أجل لا»، إخراج وآداء مجد

فضة. تتوحّد آفاق المسرح بالقضية الإقتصادية. إذ أن مسرح بابل، مسرح مهدد بالإقفال. جمهور المسرح بلبنان، جمهور العروض الإفتتاحية. استقبل المسرح (بابل) العروض السورية، كما استضاف العروض اللبنانية. لا لنكء الجراح. بدافع التشغيل المتبادل. فتح المسرح أبوابه، للكثير من العروض اللبنانية. «ماما» لمارك خريش. «فينوس» لجاك مارون. وغيرها. جهاز المسرح النطقي، جهاز اقتصادي. لا شيء خارج الإقتصاد. لم يَنسَ قدورة، التوقف أمام «مؤسسة المواطنة». يقف خلفها عمر الجباعي. تموِّل، عروض المسرح السوري المباشرة. عروض لا تُلمِّح وهي تخوض في معارضة النظام. عروض أندر غراوند. عروض «هايد بارك». أو عروض بورديل كلونديستان. لا استبطان سلبيات بالتوصيف الأخير. عروض تحلق جماهير. أو تجميع جماهير. عروض في هوامش بيروت والمدن الأخرى. أو بالقرى. طرقٌ، لا يهدم ولا يبني. لن تنمو المسرحية السورية إلاّ في سوريا، إلاّ بالمدينة السورية. حضورها حضور قاصر بلبنان وفي أي بلد آخر. لا بسوريا. لأن المسرح مديني. نقطة التموضع، تبقى رمزية، لحظة الإبتعاد عن دمشق أو حُمص أو حماه أو حلب. لا تأثيرات. لا شراكة، مؤثرة. لن يتمخّض الجرح عن عقد وربط مع المسرح، إلاّ في سوريا. لن تعدم بعض الشخصيات، المساعدة. مساعدة محدودة. تقديم الصالات للتمارين على مسرحية، مجاناً أو برسم رمزي. لن تمهر المسارح، العروض المسرحية السورية، بتواقيع مدرائها. المسرح حديقة، لا بيت. تهرم المسرحية، بعد يوم، بعد يومين على عرضها. لأنها تدور في حفرة، لا في حياة. لن تكف الأعمال عن التجمع. «ما عمّ بتذكر». قدم أسامة غنم، مسرحيات عديدة (الشريط الأخير، كمثال). المهاجران لسامر عمران. الغرف الصغيرة، لوائل قدور. المركز لساري مصطفى. النافذة لعمر جباعي. مجد فضة، هز نص بينتر «من أجل نعم أو...» على شراكة نسبية بين لبنانيين وسوريين. هو وممثلون لبنانيون. لا حمل هنا. لقاء أصوات، بهدف التخفيف من الغربة. تتوسل الكثير من العروض، تشغيل الجمعيات والمؤسسات والصناديق الدولية. عروض فقيرة. عرض في عكار وآخر في صيدا أو في بيروت. عروض مسرحية وعروض غير مسرحية. كالحفل الغنائي «شكراً لبنان» (بابل). عرض «سكاكين»، شراكة أخرى. شراكة بين هواة لبنانيين وسوريين. قدم في مرجعيون. مسرحية، قدمها ستون ولداً سورياً، في واحدة من قرى سهل البقاع. أخذت المناسبة الشغل المسرحي هذا. اليوم العالمي لمكافحة عمالة الأطفال. المخرج المسرحي، لا تهمه هوية الجمهور. سوري أو لبناني أو أردني أو عراقي. لذا، لا يوجه شغله المسرحي إلى جمهور محدد. بيروت مناسِبة، لأن القاهرة كبيرة، في حين تفتقد عمان الحال المسرحية الحاضنة. هاشم عدنان، العضو بفرقة زقاق اللبنانية، يلحظ أن ثمة مقاومة من اللبنانيين لأعمال الفنانين السوريين. يقول: عنصرية. هناك سوريون (لا يرغبون بذكرهم) يعتبرون أن بيروت فخٌ. لا فضاء حر في بيروت. بيروت قاسية. لا تحب أحداً، لا تأمن لأحد، في حين لا تنفك تطلب من الآخرين، التعبير عن إعجابهم ومحبتهم لها. هاجر جزء منهم. عاد جزء إلى سوريا. وهناك، من يقيم على الحد الفاصل بين بيروت ودمشق. كالمخرج عمر أبو سعدة. جاء الأخير بمسرحيته الأخيرة «أونتيغون» إلى لبنان، بعد أن لعبت بدمشق. ثم عاد ومسرحيته إلى دمشق. باحت المسرحية في مسرح المدينة البيروتي، بالمأساة السورية كفعل لا نهائي. رأفت الزاقوت، قدم «توته توته، بلشت الحدوة». قدم وائل قدور «الفيروس» وفارس الذهبي و«ريح». «المرود والمكحلة» من عدنان عودة. «باريس في الظل»، من يم مشهدي.

هناك العشرات من الفنانين السوريين المقيمين بلبنان، لم يذيلوا حضورهم بالعمل بالمسرح. غسان مسعود وعبد المنعم عمايري وأمل عرفة وجمال سليمان وغيرهم. لا لأنهم خلصٌ للأعمال التلفزيونية. لأنهم أدرى، بأن مسرح سوريا زائر، لا أكثر. فرعٌ من المسرح، لا أصل. وأن الاعمال التلفزيونية، تصهر أكثر من الأعمال المسرحية. لن تصنع المسرحيات معجزة. لن يكف المسرح عن الحياة. بيد أن الكثيرين، لن يعثروا، بالمسرحيات الزائرة، على غاياتهم. لن يجدوا فيها حيواتهم ولا هيئاتهم الحية أو المائية. حضور بتمام الجسد، لا انضمام إلى ميثاق. قبوع بالزوايا. لن ترمم مسرحية مرآة مكسورة. لن يتوافق الطرفان. لن يفتح الباب. هكذا، تتعاطى الصحف اللبنانية مع المسرحيات الملعوبة في سوريا، بعطش التعاطي، في حين أن كلمات السر الإعلامية لا تُسلِّم لأصحاب المسرحية المشغولة في لبنان. هذه إشارة جوهرية. لا تسمع الصحف، إلاّ أصوات مبهمة بالمسرحيات هذه. وصلات صوتية. مسرحيات لا تبقى نفسها على الدوام. كلما طال بها الأمد، خارج سوريا، كلما انفكت ضفائرها. مروحة مختلة. واحدة من مظاهرها، أن سوريين، استفادوا من علاقة اللبنانيين بإعلامهم. تعلموا تقنيات، تفك طلاسم العلاقة بالآخر بالمسرح وخارج المسرح. بقيت مسرحيات هتافات. لا مسرحيات نداءات. البون شاسع بين الإثنتين.

*فنان لبناني وناقد وباحث في المسرح

عرض

«ألف تايتانيك وتايتانيك»: ممثلون ودمى يروون في عرض صامت أهوال الهجرة

يروي عرض «ألف تيتانك وتيتانك» الأهوال التي يقاسيها المهاجرون في البحر والأسباب التي تدفع عشرات الآلاف من البشر لترك بلادهم والانسلاخ عن حياتهم وركوب البحر في رحلة محفوفة بالموت، سعياً وراء حلم أن يعيش الإنسان إنساناً وراء البحار.

مشهد الهجرة القاسي الذي يتصدّر الاهتمام الاعلاميّ اليوم ويثير قلقاً عميقاً على مستوى العالم بأسره، يناقشه العرض باستخدام مسرح الدمى والعرائس، في ما يخالف الصورة المطبوعة في أذهان الكثيرين بأن هذا النوع من المسرح تقف حدوده عند الترفيه عن الأطفال.

يتجنّب العرض إلى حدّ بعيد جداً التراجيديا في مقاربة هذه القضية، بل يتناولها بتعبيرات لا تخلو من الخفّة والسخرية والخيال واللعب والسحر والخدع المسرحية، بهدف الحديث مع الجمهور عن قضية الهجرة القاسية بشكل خفيف ومسلّ في إطار «مسرح الفرجة».

يخرج هذا العرض الصامت قليلاً عن قواعد مسرح الدمى، إذ يتحوّل كلّ شيء فيه على المسرح إلى دمية، من الحيوانات الداجنة في القرية التي لا يوفّرها الموت، والصواريخ المنهمرة من الطائرات على القرية الصغيرة، إلى حقيبة المسافر التي تعانده في قرار السفر وتأبى الرحيل، وقوارب المهاجرين التي تلعب الأمواج بمصائرها ومصائر ركابها، والبحر الكبير الهائج الذي يبتلع كلّ يوم عشرات الناس وأحلامهم وقصصهم ومآسيهم.. كلّها دمى تتشارك مع الممثلين وتتفاعل على خشبة المسرح.

أريد لهذا العرض أن يكون صامتاً تتماشى حركته مع الموسيقى الحيّة حيناً والمسجّلة حيناً آخر، رغبة في التعبير عن أن قضية الهجرة تتجاوز اللغات والبلاد، ورغبة في أن يتجاوز العرض في جمهوره المستهدف اللغات والبلاد أيضاً.

استخدمت في تصميم الديكور المسرحي والدمى على أنواعها مواد عادة ما ترافق مشوار أي لاجئ، وهي غالباً أوراق صحف وبلاستيك وكرتون، وهي أيضاً تدلّ على هشاشة واقعه أمام آلة القمع والحرب والرحلة القاسية.

ويروي العرض الممتد على قرابة الخمسين دقيقة قصة ترويها شهرزاد لشهريار عن شاب يعيش في قرية في بلد من الشرق تأتي عليها الحرب وتدفعه إلى مغادرتها، ثمّ تتوالى فصولها بين القرية الكرتونية الوادعة قبل أن تأتي عليها الصواريخ، وأفكار الهجرة التي تراود الشاب، وانتهاء به بين أمواج البحر قبالة شواطئ الحلم الأوروبي ووسط الأمواج العاتية ذات الهدير المرعب، في نهاية معلّقة مفتوحة، تماماً مثل السؤال الذي لا يجد جواباً له: هل ينبغي أن يهرب الناس من الحرب إلى خطر ركوب البحر والموت المحتمل مع كلّ موجة؟ أم يبقون في بلدهم في احتمال الموت اليومي مع كلّ طلقة نار؟، ومثل التناقض النفسي الداخلي للمهاجر بين البقاء في منبته حيث الخطر، أو أن يقتلع نفسه إلى بلد آمن لا يشبهه.

جالت مسرحية «ألف تيتانيك وتيتانيك» السويد والدانمارك وخصوصاً مخيّمات اللاجئين فيها، ثم انتقلت إلى بيروت ومنها إلى مخيّمات اللاجئين السوريين والفلسطينيين في لبنان، ومن بعدها إلى مهرجان قرطاج في تونس.

مع مخرج المسرحية محمود الحوراني وهو فلسطيني بريطاني مقيم في بيروت، كان هذا الحوار:

كيف اخترتم هذا الموضوع؟

أصبح موضوع الهجرة جزءاً من عيشنا اليومي، يلاحقنا في الأخبار اليومية، الأخبار التي نسمعها والمشاهد المؤلمة التي نراها عبر وسائل الإعلام، ولذلك فرض هذا الموضوع نفسه علينا، وقررنا تناوله في مسرحيتنا.

لماذا اسم «ألف تايتانيك وتايتانيك»؟

لقد حدث في بدايات القرن العشرين حادث غرق سفينة تايتانيك المؤلم، والمصادفة أن تلك السفينة كانت تحمل معها مهاجرين أيضاً.. في أيامنا اليوم يغرق كلّ يوم قارب وسفينة تخرج من بلادنا محمّلة بالمهاجرين، وتغرق في وسط البحر بشكل مأسوي.

هل تقول المسرحية شيئاً أبعد من أن تحكي مجرّد قصة إنسان مهاجر؟

نعم، المسرحية تروي قصة مهاجر، لكنها تحاول أن تقول ربما أن المهاجر ليس بالضرورة إنساناً مشبوهاً أو متهماً بشيء، بل أن المهاجر هو إنسان كان لديه يوماً ما بيت ومزرعة وشباك وأرض، ثم أتت ظروف دفعته لترك حياته في بلده والهرب إلى بلاد الآخرين.. وهي ظروف كلّنا يفترض أننا نعرفها.

ماذا يعني وجود شهرزاد وشهريار وجوّ ألف ليلة وليلة في أوّل وآخر فصل من المسرحية؟

يعرف العالم أجمع عن بلادنا في الشرق حكايات ألف ليلة وليلة، وربما يثير الشرق فضول العالم كلّه ويجذب إليه الكثير من المهتمين الغربيين بسحره ورونقه.. لكن الشرق ليس اليوم كما هو مطبوع في الذاكرة النمطية، ففي

© داليه خميسي

مرات عدّة، حين كنّا نسمع أخبار بغداد هذه الأيام، كنّا نتخيّل ونقول إنه «لو كانت شهرزاد تعيش في بغداد في يومنا هذا، كانت ربما لتطلب اللجوء إلى أحد البلدان الآمنة».

ومن جهة أخرى أحببنا من خلال مزاج لألف ليلة وليلة الموجود في العرض أن نقول إنه لا قصص جميلة تروى من بلادنا وتؤنس المستمع هذه الأيام، بل للأسف هناك قصص مروّعة وملمّة.. بساط الريح نفسه لم يعد حلاً في بلادنا، نريد ما هو أهمّ من مجرّد الانتقال ببساط الريح، نريد تأشيرات دخول تسمح لنا أن نخرج من بلادنا.

في ظلّ ما يجري في سوريا وهجرة السوريين الجماعية جاءت مسرحيتكم، هل هي عن السوريين تحديداً؟

ما يجري لأهلنا في سوريا مؤسف ومؤلم جداً، لكن مسرحيتنا هي عن الإنسان الذي أجبر على الهجرة وترك بلاده بشكل عام، وعن قسوة الحرب وتداعياتها، قد يحدث هذا وحدث في أمكنة كثيرة، ربما قد يكون في اليمن أو غزة أو جنوب لبنان أو كولومبيا أو حلب.

هل يمكن برأيك مقاربة موضوع قاس مثل الهجرة بأسلوب يلامس السخرية أحياناً كما فعلتم؟

نعم هذا ممكن جدا وفي عرضنا كان مقصوداً، أحببنا أن نطرح الموضوع بشكل فنيّ وإنسانيّ قدر المستطاع، لنضمن أننا نتحدث لقلب المتفرج وعقله معاً، أردنا أن نكون أقرب لقلب المشاهد، لا أن نطرح قضية مأسوية بطرح درامي يزيدها ألماً. وبالمناسبة، فريق المسرحية يضم عدداً من اللاجئين، وأنا نفسي لاجئ للأسف.

أنا السوري - اللبناني المتّهم

خالد خليفة*

حين كنا أطفالاً وفي باحة المدرسة كان المدير يشرح ويجيب بانفعال عن سؤال: لماذا تدخل الجيش السوري في الحرب الأهلية اللبنانية؟

بقيت في ذهني عبارات غامضة، كوقف إقتتال الأشقاء، ضرورة المحافظة على السلم الأهلي. والغريب أن ذلك الخطاب لم يبارح ذاكرتي رغم مضي حوالى أربعين سنة. ما زلت أذكر تفاصيله الدقيقة، لكنني في ما بعد وعبر كلّ هذه السنوات فهمت أن تلك العبارات ما كانت إلا تغطية لما لم نكن نجرؤ على تسميته بالاحتلال والوصاية. لكن تلك الوصاية التي استمات النظام عبر أربعين سنة بتبريرها، بقيت بالنسبة لي عاراً لايمكن إنكاره، وحكمت علاقتي الشخصية مع لبنان.

كنت أقل السوريين تردداً على بيروت، رغم عدم مسؤوليتي كمواطن سوري، لا أملك أي تبرير لدخول سوريا في الحرب اللبنانية واللعب على نار التناقضات المشتعلة بين اللبنانيين.

وكان منظر الساسة اللبنانيين الذين يتقاطرون إلى القصر الجمهوري يزيد من شعوري بالعار. ولأنني لا أملك تعبيراً أقلّ قسوة أنكفأت على نفسي وقررت بأنّ بيروت ليست مدينتي المفضلة، لم أزرها عبر عقود سوى مرات قليلة، مبرراً بأن بيروت لم تعد تلك المدينة البهية التي لا يمكن لأي كاتب سوري إلا عبورها، كان شعور العار يرافقني في كل لحظة، لقد كنا طرفاً في الحرب الأهلية اللبنانية، ولم نكن صنّاع سلام بين كل الأطراف.

مضت عقود طويلة قبل خروج الجيش السوري من لبنان بعد إغتيال الحريري، وأيضاً كان مشهد هذا الخروج يشعرني بالعار، جنود مهزومون، فقراء، بينما الضباط الذين هربوا السيراميك والدخان والويسكي وكل ما يمكن تهريبه، كانت البنوك اللبنانية والعالمية تحفظ لهم أموالهم بكل إحترام، وكثيراً ما فكرت بأن هذا التاريخ الذي رافق شباب أبناء جيلي كان يغص بالمتناقضات، ولكن الشيء الخطير الذي اكتشفته مبكراً أن السياسة السورية في لبنان حالت دون أي تنسيق حتى في مشاعر التضامن بين السوريين الرافضين لتدخل بلدهم في لبنان، وبين اللبنانيين الذين لا يعرفون بأن النظام في سوريا لا يعني الشعب.

علاقة شائكة وملتبسة، رغم وضوحها الشديد، كانت تحتاج إلى الثورة السورية لتهدم الجدار الذي بني خلال أربعة عقود بين السوريين واللبنانيين، وتعيد الصورة إلى حقيقتها. إنهار هذا الجدار في الأيام الأولى لإنهيار جدار الخوف في سوريا مع أولى التظاهرات، وبدأت تنمو رويداً رويداً فكرة شعب واحد في بلدين، لكن عكس ما كان يروّج له عبر عقود، والتي تعني بأن اللبنانيين لن يحلموا بالحرية قبل التغيير في سوريا.

إنقسم اللبنانيون بين مؤيد للثورة السورية، وبين معارض لها، وهذه هي الصورة الصحيحة الوحيدة للعلاقات منذ عام 1976 تاريخ عبور الجيش السوري إلى لبنان بموافقة دولية وعربية. تغيرت صورة السوري في أذهان اللبنانيين، من صورة المحتل إلى صورة الثائر، الهارب من البطش، اللاجئ، النازح، الحليف، العدو... ألخ.

كلّ يوم تبدو خطوط الصورة الجديدة للعلاقات بين السوريين واللبنانيين تتوضح أكثر، وتمحى خطوط الصورة القديمة، وما حدث مع اللاجئين السوريين رغم كل ألمه الشديد، كان بمثابة هدم آخر خطوط صورة السوري القديمة في ذهن اللبنانيين.

نعم مضت اربعة عقود على ذلك الصباح في مدرستي حين كنت طفلاً، والصورة لم تمحى من ذاكرتي، وأيضاً صورة حرق خيام اللاجئين، وإهانتهم في المخيمات وعلى الحدود، لن تمحى من ذهن السوريين واللاجئين خصوصاً، لكن هذه المرة هناك عنوان واضح للخصم.

الصورة واضحة جداً كما لم تكن من قبل، وهي البداية الصحيحة لبناء علاقة طبيعية بين السوريين واللبنانيين، وبعد نهاية الحرب، وولادة سوريا الجديدة الديمقراطية ستكون أكثر وضوحاً، ستتغير خارطة الحلفاء، وسيبدأ الجميع بإعادة نبش التاريخ كخطوة ضرورية للتخلص من مشاعر الندم.

لست ساذجاً للتحدث بخفة عن تاريخ أربعين عاماً، لكنه الأمل الذي يمنحني دوماً قوة التعبير، والاعتراف بأننا تقاسمنا التاريخ المشترك المليء بالألم والدموع، ويجب أن نتقاسم المستقبل بقوة التطهير لذاكرتنا المشتركة، وليس بالسكوت عما حدث، كل ما حدث لم نختره كأفراد، ولا كشعوب لهذه المنطقة، وحين نمتلك مصيرنا الذي جرى مصادرته قبل خمسين عاماً يجب أن نمتلك الشجاعة لتعريف حياتنا من جديد، إننا في مصير مشترك، وما خلفه التاريخ القريب البعيد والقريب لا يمكن للجغرافيا أن تمحوه.

نعم إنه ليس من السهل تغيير الشعور الجمعي للشعوب، لكنه في الحالة السورية – اللبنانية، يجب أن نؤمن بأنه ليس مستحيلاً، لا يمكن لنا إغلاق الأبواب في وجه التغيير المقبل، والذي لن يسامح كل من تورط في قتل لبناني أو فلسطيني او سوري، وكل من إستخدم قضية إنسانية كاللاجئين السوريين في حسابات سياسية ضيقة.

يدافع اللبناني عن السوريين في لبنان بأية صفة كانت، لأنه ببساطة يدافع عن مستقبل أولاده، ويعرف صفات الخصم الواحد الذي حوّل سوريا ولبنان إلى خراب، إحتكر تعريف الوطنية، والتاريخ والجغرافيا، وحول البلدين إلى مكبّ لنفاياته.

الشيء الأكيد الذي أعرفه الآن بأنه لن يقف مدير مدرسة ابتدائية ليبرّر الهيمنة على شعب آخر، تحت أي مسمى كان، بعد سقوط خطاب النفاق الذي كلفنا كلّ هذا الدم والألم، لن نترك أي ثقب ليمرّ منه مدير المدرسة ليجعلني مرة آخرى متهماً، كما لن يمر أي خطاب يعتبر اللاجئين أعداء يجب حرق خيامهم، وقتلهم، وإهانتهم، والإتجار في أوضاعهم المزرية.

نعم آخر خطوط اللوحة القديمة المليئة بالدم والنفاق ستمحى. وفي الصورة الجديدة، أشعر بروعة بقوة أن لا أكون أنا السوري اللبناني متهماً مرة أخرى.

* روائي وكاتب سيناريو سوري من مؤلفاته «لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة» و«مديح الكراهية» ومسلسل «هدوء نسبي»

هجرة

عمل لكمال حكيم، رسّام لبناني

يعمل «مشروع بناء السلام في لبنان» التابع لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي منذ العام 2007 على تعزيز التفاهم المتبادل والتماسك الإجتماعي بطريقة تشاركيّة مع الشباب والمدرسين ووسائل الإعلام والمنظمات غير الحكومية، بالإضافة إلى المجالس البلدية والإختيارية والقيادات المحلية. واستجابة لإنعكاسات أثر الأزمة السورية على المجتمعات اللبنانية المضيفة ومن أجل تخفيف حدّة التوترات المتزايدة حديثاً في البلاد، يعمل المشروع على تعزيز قدرات مختلف فئات المجتمع من قيادت محلية ومدرسين وإعلاميين ومجتمع مدني، على إدارة هذه الأزمة وبناء السلام والتعامل اللاعنفي مع النزاعات ومساندتهم من أجل تطوير إستراتيجيات بناء سلام متوسطة وطويلة الأمد.

يعتبر برنامج الأمم المتحدة الإنمائي شبكة التنمية العالمية التابعة للأمم المتحدة وهو يدعو إلى التغيير
وإلى تحقيق نفاذ البلدان إلى المعرفة والخبرة والموارد من أجل مساعدة الشعوب على التمتع بحياة أفضل.

لمزيد من المعلومات
مشروع بناء السلام في لبنان التابع لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي،
مبنى البنك العربي الإفريقي الدولي
شارع رياض الصلح - النجمة، بيروت - لبنان،
هاتف: 980583 - 01 / 119160 - 70
www.lb.undp.org/PBSupplement
UNDP Lebanon

تصميم وتنفيذ: عمر حرقوص، حسّان يوسف
خط: بنَاءالسَّلام خليل ماجد
تدقيق لغوي: جميل نعمة

شعوب متمكنة.
أمم صامدة.